

روايات

المؤرخ الرهاوي المجهول عن الحملتين الأولى والثانية

في سنة ١٤٠٥ (٤٩١ هـ / ١٠٩٨ م) وبعد مضي واحد وخمسون عاما على فتح التركمان ، لهذه البلاد وعندما كان الكسيوس امبراطورا في القسطنطينية جرى تعيين التركماني يغي سيان واليا على انطاكية من قبل ابو الفتح (١) ، وكان الافضل (٢) المصري في القدس التي استولى عليها من سكرمان التركماني واخوته ابناء ارتق (٣) قبل سنتين ، وبذلك اصبح الساحل كله بيد المصريين ، (٤) ، وكان ثيودور كوربلات بن هاتيم في الرها (٥) ، وقد حفظها من التركمان ، وكان يأمل ان يسلمها للامبراطور (٦) فيما بعد ، وفي هذا الوقت ظهر عدد كبير من الملوك والزعماء الفرنجة ومعهم جيش لجب ، يصحبه جمهرة من العمال والحرفيين من جميع الأنواع يعدون بالآلوف ، لابل بعشرات الآلوف وقاد هذا الجيش أربعة من الملوك . وهم بوهيموند ، وغودفري ، وصنجيل ، وتانكرد مع جيش من الأساقفة والرهبان ، وقد توجهوا للسير برا عبر الأراضي البيزنطية ، وقرروا ان يعبروا البوسفور حيث تقوم القسطنطينية ، وحيث يتصل البحران بواسطة مضيق ، وأرسل هؤلاء الملوك سفراء للامبراطور الكسيوس ، ليستعد ليذهب معهم ، وليهيء لهم ما يحتاجونه من مؤن وعلف لاستعمال الجيش ، وقد وعدهم الكسيوس بالمساعدة بكل ما يحتاجونه (٧) .

وعندما تقدمت جيوش الفرنجة ، وبدأت تدخل الحدود ، ووصل قسم منهم إلى بعض المعسكرات .. (٨) أرسلت شرانم من المشاة والعمال للعبور قبل وصول الجند ، لكن الكسيوس أذر الأتراك الذين كانوا في نيقية وما جاورها ، وأخبرهم بقدم هؤلاء ، وطلب منهم ان يهاجموهم ، وهكذا أسرع الأتراك إلى ملاقات هؤلاء على شاطئ البحر ، وذبحوهم عن بكرة أبيهم دون شفقة أو رحمة (٩) ، وعندما وصلت جيوش الفرنجة إلى القسطنطينية ، قابل رجالها الامبراطور الكسيوس ، وقام النبلاء بأداء الأيمان المغلظة على الولاء والطاعة له ، واستعد الكسيوس لمرافقتهم شخصيا في طريق آخر من خلال غالاشيا ، وبدأ الفرنجة والاغريق

زحفهم مباشرة باتجاه نيقية (١٠) التي انتزعوها من التركمان وسلموها للامبراطور ، ثم زحفوا من هناك إلى كليكية وقد مادت الأرض تحت أقدامهم ، وارتجفت أمامهم ، ثم اتجهوا إلى سورية ، حيث قرروا أن يبدأوا بالهجوم على انطاكية (١١) رأس البلاد السورية ، فنصبوا خيامهم في جميع الامكنة حول انطاكية ، وبذلك اقفلوا الطريق على كل من يود الدخول إليها ، أو الخروج منها ، ثم بدأ القتل والنهب في جميع انحاء المنطقة المحيطة بأنطاكية .

وكما سبق بنا القول كان تيودور يحكم الرها ، وعندما سمع اهالي هذه المدينة (١٢) أن الفرنجة قد وصلوا إلى انطاكية ، وعسكروا حولها ، طلبوا منه أن يئشد المساعدة من الفرنجة لحماية المدينة من التركمان ، ولم يوافق تيودور على هذا الاقتراح أولا ، إنما عندما رأى أن اهالي المدينة لم تكن لهم القوة الكافية ، وانهم سوف يستدعون الفرنجة خلافا لارادته ، تظاهر بالموافقة مع أنه لم يكن حقيقة مسرورا من مجيء الفرنجة ، بل كان خائفا جدا ، لأن اهالي المدينة كانوا يكرهونه ، لهذا أرسل رسله إلى الدوق غودفري رئيس الفرنجة وقائد جيوشها ، وطلب منه أن يرسل بعض الفرق العسكرية لحماية تلك البلاد ، وعندما قرأ الفرنجة كتب تيودور هذا ، ابتهجوا غاية الابتهاج ، وأرسلوا بلدوين أخا غودفري ، وكان رجلا تقيا ، يخشى الرب ، ويخافه ، كما كان محاربا شجاعا ، وفي ذلك الزمن كانت الرها مدينة كبيرة ، تعج بعدد كبير من السكان ، وتشتهر بما كان بها من رجال الدين والرهبان ، وكانت أرضها تغص بالقرى والمزارع والساكن .

بعد أن أقام بلدوين ورجاله من الفرنجة في الرها بعض الوقت ، بدأ بعض رجال المدينة الفاسقون الأشرار يثيرون البغضاء ، وقد وصل الأمر إلى درجة القيام بحبك المؤامرات لقتل الحاكم تيودور ، وجعل الفرنجة يحكمونهم بدلا منه ، ولم يكن ذلك حبا بالفرنجة ،

لكن بسبب البغضاء والنقمة التي كانت تمسأ قلوب أعداء تيودور ، فقد هاجوا كالحيوانات المفترسة ، وحرضوا بعضهم بعضا ، وجمعوا جمهورا عظيما ، واثاروا الشغب والفوضى بنزولهم من القلعة القائمة قرب رأس النبع ، وعندما جاء تيودور نحو ذلك الحشد ليستطلع جلية الأمر ، هاجموه ، لكنه هرب من أمامهم إلى القلعة السفلى ، التي كان قد بناها فوق البوابة الشرقية للمدينة ، وهاجموه في تلك القلعة ، فطلب منهم أن يعطوه الأمان ويقسموا بأن يسمحوا له بمغادرة القلعة مع زوجته وأطفاله دون أن يأخذ أي شيء معه ، واستجابوا لمطلبه ووعده بذلك ، وأقسموا له الأيمان ففتح لهم البوابة ، ولكنهم حذثوا بقسمهم ، وخانوا ماعاهده عليه ، وتقدموا منه وضربوه وربطوه بالحبال ، وقادوه وهو عار تماما إلا بما يستر سواته ، ثم قذفوا به من أعلى السور المرتفع مقابل المدينة إلى الأسفل (١٣) ... ابن هاتيم وخراب بيته ، وقد تسلم بلدوين جميع ممتلكات تيودور مع القلعتين ، وعندما سمع الفرنجة أن بلدوين قد استولى على الرها ابتهجوا كثيرا ، ونصبوا خيامهم قرب أنطاكية وأحكموا حصار المدينة ، وضيقوا عليها ، وحالما اشتد القتال حاك بعض رجال الحامية مؤامرة للتسليم ، وأرسلوا رسالة إلى بوهيموند لتسليمه المدينة ، وعندما تم حبك خيوط المؤامرة صعد بعض الفرنجة إلى أعلى السور ، ثم بدؤوا بالاندفاع إلى الأسفل ، إلى داخل المدينة ، وعندما رأى يغي سميان أن المدينة قد سقطت فر عبر باب القلعة العليا على التلة إلى نواحي شرقي الجبل ، وكان سقوط أنطاكية بسبب الخيانة وتسليم الحامية قرب التلة على الجانب الشرقي (١٤) .

وبينما كان الفرنجة يحاصرون أنطاكية ، إذا بأحد زعماء التركمان الكبار واسمه كربوغا يصل إلى الرها من الشرق ، ويدخل بوابة المدينة ، وقد كانت الأراضي حول الرها مملوءة بقطعان الحيوانات والمواشي والماعز والرجال والبيوت ، فأحدث دمارا كبيرا وتخريبا وقتلا وسلبا ، وأخذ الكثيرين عبيدا ، ثم اتجه نحو حلب

للذهاب إلى أنطاكية ، وعندما وصل إلى حلب علم أن أنطاكية قد سقطت بأيدي الفرنجة ، فأسرع نحوها وعسكر حولها ، ومع قوة عظيمة جمعها من بغداد والعراق والجزيرة ، وحاصر الفرنجة وضيق الخناق عليهم في أنطاكية ، وبدأ بالهجوم على المدينة وقد قاست الحامية بسبب نقص المؤن والعلف للخيول ، فالبلاذ أقفرت ، ولم تصلها أي امدادات في تلك السنة ، وكان الفرنجة كثيرون يعدون بالالوف ، لذلك ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وشدت المجاعة عليهم خناقها ، حتى صار ثمن الحمار الواحد عشرين دينارا وانعدم القمح والشعير ، وفي هذه الأثناء رأى أحد المطارنة حلما أن هناك في مكان معين في كنيسة القسيان العظيمة الرمح الذي طعن به جسم المسيح (على يد اليهود في طبريا) ، وقد قال له الهاتفت في الحلم : « خذ هذا الرمح ، وضعه أمام الجنود ، وأخرج معهم إلى العدو فسوف تهزمونه » .

وعندما وجدوا الرمح ارتفعت معنوياتهم ، وابتهجوا واستعدوا للهجوم على التركمان ، وخصوصا وأن المجاعة قد شحذت همهم ، فأصبحوا يرون أن الموت في المعركة خارجا أفضل من الموت داخل البيوت كالأنساء ، ووضعوا علامة الصليب وشارات هذا الرمح على حراهم ، وزحفوا إلى الأمام فوهبهم الرب النصر من لدنه ، وأنهار جيش التركمان فهرب ، وبعد أن أعمل الفرنجة القتل بأعدائهم رجعوا إلى خيامهم ومراكزهم بعد أن غنموا كثيرا من الغنائم ، والحبوب والخيول والسلم الأخرى ، وقد انتشر خبر هذا الانتصار في الخارج ، فكسرت شوكة ملوك التركمان (١٥) ، واستولى الخوف والفرع على قلوب جميع ملوك المنطقة .

وحكم بوهيموند (١٦) أنطاكية بمساعدة ابن أخته تسانكرد ، واحتفظ التركمان بسروج (١٧) ، وتملك الأرمن من أبناء بيازك زيوجما (١٨) بضيفاف الفرات ، وأخذ باسميل اللص وهو من الأرمن

كيسوم (١٩) ورعبان (٢٠) وقد دعي بهذا الاسم لأنه كان يسطو على المسافرين باستمرار) واحتفظ غازي (٢١) التركي صاحب بلدوقيا بسميساط (٢٢) واحتفظ البيزنطيون أبناء فيلارتوس بمرعش (٢٣) والجبل الأسود ، واحتفظ الأرمن أبناء رافين بعين زرلة (٢٤) وكليكية ، واحتل الفرنجة بطرسوس (٢٥) والمصيصة واذنه (٢٦) .

وعندما قويت شوكة الفرنجة ، استعدوا للتقدم ولحصار القدس ، وزحفوا برا وبحرا ، وقد حاصروا أولا يافا التي تقع على الساحل الفلسطيني ، واحتلوها في بضعة أيام ، ومن ثم تحركوا فورا ، ونصبوا خيامهم أمام القدس ، واحاطوا بها من كل جانب وقد هاجموا بضاوة ، وبنوا الأبراج الخشبية المتحركة أمام المدينة ، وكانت المدينة تحتوي على جمع غفير من الجند المصري ، والأسلحة والعدد الحربية ، وعندما اشتد الهجوم سلم الحاكم المدينة للفرنجة في شهر تموز في السنة الثمانية لبدء تلك الحملة عام ١٤٠٩ (٢٧) ، ولقد قتل في المدينة ثلاثون ألف مسلم ونهبت المدينة (أما المسيحيون فقد كانوا قد طردوا منها قبل وصول الفرنجة) ونصب الدوق غودفري ، وهو أحد قوادهم الكبار ، ملكا على القدس ، (٢٨) ، ثم انتشروا في جميع أنحاء البلاد واحتلوا القرى والقلاع ومدن فلسطين ، وجميع الجليل .

واخذ الكونت صنجيل أحد مقدمي الجيش الذين قدموا مع الفرنجة قوة كبيرة وحاصر طرابلس ، وهاجمها بضاوة ، وكانت المدينة محصنة بثلاثة أسوار وخنق عميق بين كل سورين ، ولكنها كانت مدينة صغيرة ، وبها حامية كبيرة من الجنود الأكفاء ، وبنى صنجيل حصنا على منحدرات جبل لبنان الجنوبية وجعله مدينة مأهولة كما هو الآن (٢٩) ، وقد حارب وقتا طويلا للاستيلاء على المدينة وظل الحصار مدة سبع سنوات حتى سلمها صاحبها (٣٠) . ولقد غنم كثيرا من الأسلاب ، وقتل جميع المسلمين الذين كانوا في

المدينة ، وقد احتل جميع الأراضى حولها وجميع الساحل ماعدا صور وعسقلان اللتان بقيتا بيد المصريين ، وأما دمشق وحمص وتدمر وبعلبك وحماء وحلب وبصرى وكلا (٣١) ، ومنبج وحران والرقعة فقد اختطف بهم المسلمون الذين كانوا يلحقون الأضرار الفادحة بكل الأراضى التي احتلها الفرنجة .

وفي هذا الوقت كان جبريل القلقيلي (٣٢) يحكم ملاطية ، وكان قد عينه بوزان (٣٣) قائدا عليها وواليا لها ، وعندما قتل بوزان ظلت المدينة تحت سلطة جبريل ، وقد أرسل إلى بوهيموند في أنطاكية يقترح عليه أن يأتي إلى ملاطية ويتزوج ابنته (ابنة جبريل) ويستلم ملاطية كمهر (دوطه) للبنت ، وكان اسم البنت كيرا - مورفيا ، واتجه بوهيموند نحو ملاطية ، لكنه عندما اقترب منها تصدى له الدانشمند حاكم بونتوس وكبدوكيا وقد هزم بوهيموند وقتل من كان معه من الفرنجة ، أما هو فقد وقع أسيرا (٣٤) وبعد مدة افتدى بمبلغ ضخم من المال ، ورجع إلى أنطاكية حيث عين ابن أخته تانكرد حاكما عليها ، ثم أبحر إلى موطنه حيث مات ، وكذلك فعل صنجيل (٣٥) الذي فتح طرابلس بأن جعل ابنه حاكما على طرابلس ، ثم أبحر عائدا إلى موطنه .

وحدث أن رغب أحد أمراء الفرنجة المدعو بيتافين (٣٦) أن يتوجه إلى المنطقة عندما سمع أن الفرنجة الذين أتوا قبله قد استولوا على سورية وفلسطين ، فعمل خطة بأن يمر من خلال سامفيليا وكبادوقيا ، ويمتلك الأراضى الشمالية وعندما وصل إلى القسطنطينية اجتمع بالأمبراطور الكسسيوس وطلب منه أن يقدم بعض المرشدين الذين يعرفون خفايا الطرق ، ولكن الكسسيوس خانه وضلله فأرسل معه رجالا أمرهم أن يقودوه إلى الأراضى الصحراوية حيث لاماء ولاعلاف : ثم أخبر التركمان في تلك النواحي أن يحيطوا به ويحاصروه ، وقد تحقق كل مارمى إليه الكسسيوس ، فقد أتت قوة عظيمة من التركمان ، وأحاطت به وبمن معه ، وهاجمتهم وهم في حالة تعب وإعياء من الجوع والعطش وقد رماهم التركمان بوابل من

النبال ، ولم يكونوا بحالة تسمح لهم بالقتال ، ولم يكن امامهم مكان يفرّون إليه ، ولهذا هزموا شر هزيمة ، وقتل التركمان الكثير منهم بسيوفهم وغنموا منهم مبالغ طائلة من الذهب والفضة ، وقد هرب بيتافين قائدهم ومعه القليل من رجاله ورجع خائبا إلى بلاده .

ومات غودفري ملك القدس بعد سنتين من حكمه ، وترك المملكة لأخيه بلدوين ملك الرها ، وعندما علم بلدوين بالخبر سلم الرها لبلدوين آخر ، وكان رجلا ابيا وزعيما كبيرا من زعماء الفرنجة المحترمين ، وذهب إلى القدس حيث حكم مكان أخيه ، وكان جوسلين وهو أحد أقارب بلدوين الذي أصبح حاكم الرها يحكم تل باشر (٣٧) في منطقة منبج ، وعندما أصبح بلدوين حاكم الرها عرض عليه جبريل صاحب ملاطية أن يتزوج ابنته كما كان قد عرض من قبل على بوهيموند وقبل بلدوين وتزوج كيرا مورفيا ابنة جبريل وأخذها إلى الرها ، وقويت شوكة الدانشمند حاكم كبدوكيا الداخلية خاصة بعدما أسر بوهيموند ، واستلم فدية كبيرة لاطلاق سراحه ، فجمع جيشا عظيما وعسكر حول ملاطية وأصابها بأضرار ، وقد حاربت حامية المدينة قدر استطاعتها ولكن عندما شعر رجال الحامية أن القتال أصبح دون جدوى ، أصابهم الوهن فأقنع بعضهم أسقف المدينة الذي كان مخلصا في تشجيع الرجال على القتال ، أقنعوه بأن يطلب من جبريل ويشير عليه بأن يوافق على المصالحة والتسليم ، وعندما اشتد القتال تكلم المطران مع جبريل لاقناعه ، ولكن جبريل الشقي ظن أن هنالك مؤامرة ضده فدخل الشيطان إلى قلبه ووسوس له فأقدم على قتل الأسقف وعدد من رجال المدينة المسيحيين المعتبرين ، معتقدا أن في ذلك خلاصا له ، لكن العكس هو الصحيح كانت سببا في نهايته ودماره ، وكان اسم الأسقف سعيد ابن صابوني ، وقد تغلب المحاصرون على المدينة وفتحوها ، وأصبح الدانشمند صاحبها (٣٨) ، وقد قتل جبريل وأزيل بيته من الوجود كليا .

وكانت بلدة سروج (٣٩) قرب الرها بلدة غنية ، ومأهولة بالسكان

المسلمين والمسيحيين ، وفيها جميع أنواع التجار وأكثرهم شهرة ، وكان واديها غنيا ومأهولا بالسكان ومليئا بالدساكر ، وكان يحكم هذه البلدة تركماني اسمه بك (٤٠) وهو أحد أبناء أرتق ، وقد قام فرنجة الرها بمهاجمة هذه البلدة وحصارها من طرف من أطرافها ، وأتى لمساعدتهم أرمن منطقة الفرات ، ووضعوا أنفسهم تحت تصرف الفرنجة ، وهاجموا تلك البلدة بعدما أحكموا الحصار حولها من كل جانب ، ولما أدرك صاحب سروج أن البلدة لا يمكن أن تقاوم وتستمر وسط الأراضي المسيحية راسل بلدين حاكم الرها يعرض عليه أن يسلمه سروج وفق شروط يعينها له وأيمان موثقة ومؤكدة ، فوافق بلدين وأعطى كل المواثيق المطلوبة فسلمت له سروج مع قلعتها ، وعين بلدين أحد الفرنجة المشهورين ويدعى بوتشير ، وقام هذا فجمع الأموال الطائلة من سروج ، وقد صادر أموال أحد الرجال العرب المسلمين واسمه عبيد ، وكان واحدا من قادة البلدة وأعيانها ، مع أموال أخوته وأقاربه ، وأخذ من بيوتهم أموالا وثروات لا يمكن حصرها ، وهكذا غدا بوتشير غنيا وقويا .

وحينما سمع سكرمان بن أرتق (٤١) عم بك بأن الفرنجة قد استولوا على سروج ، جمع جيشا عظيما وحاصرها معتمدا على عدد المسلمين الكبير في البلدة ، ولدى سماع بلدين حاكم الرها بذلك خف لقتاله ، وعندما اقترب الجمعان من بعضهما ، نصب التركمان كمينا للفرنجة ، وأطبقوا عليهم من المقدمة والمؤخرة ، فكسر الفرنجة ، وقتل منهم عدد كبير ، لكن بلدين هرب إلى الرها ثم تسلل وهو مفعم بالخوف عبر الفرات ، ووصل إلى أنطاكية ليجمع جيشا وينقذ سروج ، وكان بوتشير حاكم سروج قد وقع أسيرا ، وقد انسحب جميع المسيحيون هناك ، وتجمعوا في القلعة ومعهم بابيلاس أسقف الفرنجة في الرها الذي صدف أن كان موجودا في الرها في ذلك الوقت وقد اصطحبوا معهم العمال والنجارين والحدادين وجمعوا المؤن وبعد أن هزم الفرنجة بدأ التركمان في حصار القلعة وهاجموا النصارى بقسوة وببينما كان هؤلاء يقاتلون ليلا نهارا وصل رسول من بلدين يحمل رسالة يقول فيها استعدوا

من داخل القلعة ، وعندما بزغ الفجر أشعل الفرنجة المشاعل ، ووضعوها على رؤوس الرماح وهجموا ، وقد مادت الأرض تحت وطأة اقدامهم ووصل ضجيجهم إلى عنان السماء ووافاهم رجال الحامية وامدوهم بالعون والمساعدة ، وهكذا حل الرعب في قلوب التركمان وتملكهم الخوف فهزموا ، وذبح الكثير منهم بحد السيف وتقدم الفرنجة إلى معسكر التركمان وأعملوا النهب فيه دونما توقف ، وغنموا الأموال والسلع ، وحل الخوف في قلوب سكان المدينة من المسلمين ، ولم يصدقوا أن الفرنجة سوف يعاملونهم بأي نوع من الرحمة أو الشفقة ، وهكذا أقفلوا أبواب المدينة وحصنوا الأسوار وبدؤوا بمقاومة الفرنجة ، وكانوا يأملون أن يحتفظوا بالبلدة حتى يأتي جيش من جيوش المسلمين لتخليصهم ، وحاول الفرنجة أن يقنعوهم بأن يتخلوا عن هذا العناد ، ويتخلوا عن هذا الموقف ، وطمانوهم بالآيمان المغلظة أنهم لا يرغبون في قتلهم ، ولكن هؤلاء لم يعيروا الفرنجة أذنا صاغية ، فأعلن الفرنجة « أنه يجب على كل المسيحيين داخل البلدة أن يلبسوا السلاح ويضعوا إشارة الصليب » ، وبعدها هجموا كالأسود ، وقفزوا من القلعة إلى البلدة وهاجموها كالجزارين فذبحوا جميع المسلمين الصغار والكبار حتى امتلأت المدينة بأشلاء القتلى الألوف ، لابل عشرات الألوف ، التي لاتعد ولا تحصى ، وقد خربت تلك البلدة الأهلة بالسكان ، وتجمع المسيحيون الذين بقوا أحياء حول القلعة وعاشوا معيشة البؤس والفقر (٤٢) بعد هزيمة كربوقا (٤٣). المذكورة أعلاه ، وبعد هزيمة سكماتن والمصائب التي حلت بالمسلمين في سروج ظهر أحد الأمراء من الشرق ويدعى جكرمش (٤٤) واستعد بجيش عظيم لقتال الفرنجة ولحماية البلاد ، فبدأ بمهاجمة الرها وجاس جيشه خلال البلاد وأعمل بها قتلا ونهباً واستعبادا حسب هواه ورضاه ، وحالما اقترب الجيش من المدينة خرجت حاميتها للقاءه عند الباب الشرقي لمنعه من الاقتراب منها ، وتقدم كثير من أهالي الرها الحمقى بسيفوفهم وأسلحتهم ، وخرجوا من المدينة لقتال التركمان الذين حالما راوهم قادمين بسرعة ودونما نظام انسحبوا إلى الورا قليلا حتى مكنوا الفرنجة من الانتشار في السهل أمام الجسر الشرقي ، ثم حيا

التركممان بعضهم بعضا وبدأوا يطبقون على الفرنجة من جميع الجوانب ، ورأى الجنود على الأسوار كل هذا فخشوا أن يلتقي الجيشان ويختلطان بعضهما ببعض ويرجعا معا إلى المدينة ولهذا أقفلوا الأبواب وانعطف التركمان واطبقوا بقسوة على المحاربين من أهالي الرها فهرب هؤلاء ، وعندما وجدوا أن الأبواب مقفلة ارتجفوا وحل بهم الذعر والهلع ، لأنهم لم يستطيعوا الوصول إلى الجسر فوق الخندق ليعبروه بين الأسوار ، فسقط معظمهم في الخندق في أحد جوانبه أو في الجانب الآخر ، ونزل الرجسالة من التركمان خلفهم وأعملوا فيهم القتل دونما رحمة ، وامتلا الخندق في لحظة بجثث القتلى ، وجرى الدم كالنهر وانساب في الخندق ، وهنا انسحب جركممش بعد أن خرب وأحرق مباششاء من القسرى والريف (٤٥) ،

وفي هذا الوقت كان رجل من بلدوقيا يعيش في سميساط ، ويحكم بها مع عدد من التركمان فأقدم على تسليم هذه البلدة للفرنجة لقاء بعض المال ثم انسحب ، وفي أرض الشمال في كركر (٤٦) كان الأرمن يعيشون ويحكمون ، وكان مقدميهم : جستادين (٤٧) وتابتوج وكريستوفر أبناء سننيل ، وكانت البلاد غنية تحوي كثيرا من الأديرة وبيوت الكهنة من بينها دير السلالم « المعراج » ، ودير القديس أبخاي عند منحدرات صخور الفرات ، ودير الرهبان الحفاة في باسكين ، ودير القديس جورج ، ودير القديس شاباتي في شيرا ، ودير مالكوس مع عدد من القرى الأهلة بالسكان ، والدساكر والحقول ، وكان لديهم كثير من المقيمين جميعهم من الأرثوذكس ، وكان الأرمن الذين يحكمونهم خاضعين للفرنجة .

وفي عام ١٤١٤ (٤٨) عندما كان الفرنجة في ذروة قوتهم اجتمع جميع ملوكهم ومعهم الجيوش العظيمة أتوا إلى الرها وقرروا أن يزدحفوا شرقا ويفتحوا البلاد هناك ، وكما جرت عادتهم السيئة لم يتفوقوا على شيء بسبب تنازعههم وخطرسمة مقدميهم وتفاسخهم على بعضهم بعضا ، ولقد مكثوا مدة طويلة في الرها يناقشون كيفية

تقسيم المدن التي سوف ينتزعونها من التركمان ، فأحدهم كان يريد ميافارقين ، وآخر أراد آمد ، وثالث طلب نصيبين ، ورابع أصر على أخذ الموصل حتى وصل بهم الأمر إلى أن رموا قداح القسمة بشكل مثير للسخرية ، ثم استعدوا للزحف على نصيبين ، ولدى سماع التركمان بتجمع ملوك الفرنجة بدأوا يلمون شعثهم أيضا ، وفي حين كان الفرنجة مايزالون في الرها يتجادلون حول تقسيم البلدان جمع التركمان قواتا عظيمة ، وأعدوا العدة لمهاجمة الفرنجة عند شروعهم بالزحف .

وعندما غادر الفرنجة الرها رافقتهم جماعات كبيرة من سكان المدينة الذين كان لاهم لهم سوى السلب والنهب وجني الثروات ، والاستيلاء على الأسرى من المسلمين والتركمان عندما تقع الهزيمة بين صفوفهم ، وهكذا تضخم حجم معسكر الفرنجة ، وعندما وصل الفرنجة إلى سهل حران زحفوا عبره شرقا حتى وصلوا إلى بيت إبراهيم في مكان يدعى دهبانه (٤٩) ، حيث كان هناك مسجد كبير وبيت لعبادة المسلمين وخشي أهالي حران من الفرنجة ، فأخذوا مفاتيح بلدتهم وقدموها عنوانا على طاعتهم وخضوعهم لهم ولولائهم ، وهنا رأى بلدوين صاحب الرها أن حران من أملاكه ، لأنها واقعة ضمن أراضيه ، وأنه بالتالي إذا عسكر الفرنجة قربها وتملكها ملوكهم سيجعل ذلك جنودهم يدخلونها ويعملون بها النهب والسلب ، وبذلك ستضعف المدينة ، وهذا لم يكن في مصلحته ، لهذا أرجع المفاتيح للأهالي وأخبرهم أنه يعتبرهم من أتباعه ، وأمرهم أن يحافظوا على المدينة حتى يرجع بعدما يتفرق بقية الغرباء ، وعندما سمع تانكرد صاحب أنطاكية والملوك الآخرون بما حدث اغتاضوا من عمل بلدوين وأخبروه بصراحة أنه لم يتصرف تصرفا لائقا ، إذ كان من الواجب احتلال تلك المدينة الغنية ، وأن يتركوا أمتعتهم الزائدة فيها ، ويذهبوا خفافا لمقابلة الأعداء القريبين منهم ، وإذا وهبهم الرب النصر فسوف لن يتجرا أحدهم أن ينتزعها من بلدوين ، وسوف يحل الزعر بالتركمان عند سماعهم بسقوط

تلك المدينة ، وإذا هزم الفرنجة لاسمح الرب فستكون هذه المدينة ملجأ
وملاذا لهم ، ولكن بلدوين لم يوافق على هذا الكلام .

وزحف الفرنجة من دهبانة وانتشروا باتجاه نهر البليخ ، وكان
تآنكرد مغضبا لذلك فضل أن يظل دوما في المؤخرة، وعندما وصلوا
راوا التركمان أمامهم الوفا لابل عشرات الألوف وبدأت المعركة حالا
(٥٠) فأمطر التركمان الفرنجة بوابل من سهامهم التي كانت تنهمر
كالمطر، وهذا جعل الرعب (٥١) والفرع يدب في قلوبهم، ثم سل الأتراك
سيوفهم وبدأوا بالقتل والذبح في المؤخرة ، وحالما رأى تآنكرد
ورجاله في المؤخرة أن المذبحة قد بدأت بين صفوفهم لووا أعنة
خيولهم وهربوا تاركين أولئك الذين في المقدمة لقدرهم ، وهنا زادت
قوة التركمان فبدأوا بالقتل دون شفقة أو رحمة ، وأسروا
الكثيرين ، وقد أسر بلدوين صاحب الرها مع بعض أقاربه ، وكذلك
الكونت جوسلين صاحب تل باشر ، وكان فارسا شجاعا وقيدوهم
جميعا بالأصفاد الثقيلة ، ونهبوا معسكرهم وأسلحتهم وخيولهم
وجميع ممتلكاتهم التي لاتحصى (٥٢) ، وأخذ التركمان بلدوين
وجوسلين مقيدين بالأغلال إلى الموصل ، وهناك انعكست الآية ،
وخابت آمالهم حيث حكم عليهم بأن أودعوا السجن ، بعدما خططوا
أملين بالاستيلاء على الموصل ، ومضى تآنكرد صاحب انطاكية إلى
الرها وارتاح هناك بضعة أيام يأكل ويشرب ويفعل ما يشاء
ويهوى ، وأخذ منها ثروات كبيرة وخيولا كثيرة ثم عين أحد رجاله
واسمه ريتشارد (٥٣) حاكما عليها وغادرها عائدا إلى انطاكية .

وكان ريتشارد هذا رجلا فاسدا طاغية خشنا ظلوما ، وانتهز
أشرار أهالي الرها هذا الظرف الذي ناسب مفسدهم فوشوا ضد
بعضهم بعضا ، وتأمروا ، ووجد كل من كان يحقد على آخر الفرصة
المناسبة لايزائه ، وعاملهم الحاكم بعنف وعذبهم وسجنهم ، وأنزل
بهم النزل ، وقد جمع منهم كثيرا من الأموال خاصة وأنه كان يدرك
أنه كان مغتصبا وعابر سبيل ، وليس سيذا حقيقيا أو وراثيا .

وظل بلدوين صاحب الرها وقريبه جوسلين الشهير أسرى في الموصل ، ولم يزعج أحد من الفرنجة نفسه ويسعى لتحريرهما لأن تانكرد كان حاقدا عليهما ، وريتشارد كان يتصرف بأملاكهما كما يشاء ، وبدأ السجناء بالتداول في الأمور فقال بلدوين إن من الصعب إطلاق سراحه لأنه رجل كبير الأهمية ، وإن جوسلين ينبغي أن يطلق سراحه أولا فعندها يستطيع أن يعمل لإطلاق سراح بلدوين ، وتم التفاوض مع التركمان واتفق على إطلاق سراح جوسلين مقابل مبلغ قدره اثني عشر الف دينار ، وأطلق سراحه لجمع هذا المبلغ ، ووضع مكانه في السجن اثني عشر رجلا من أعيان أصدقائه كرهائن ، وبينما كان يجمع المال المطلوب ، هرب الرهائن الاثنا عشر ونجوا من سجن الموصل ، وهكذا تحرر جوسلين وأصدقائه دون عناء ، وبمساعدة صاحب قلعة جعبر على الفرات (٥٤) - وهو رجل مشهور بشهامته وقدرته على التوسط - حددت فدية بلدوين قدرها سبعين الف دينار ميخائيلي (٥٥) . وجمع جوسلين حوالي خمسة وعشرين الفا وحملها بنفسه إلى قلعة جعبر ، ووضع نفسه كرهينة لدفع الباقي ، وأرسل صاحب قلعة جعبر رسولا من قبله إلى الموصل مع الدنانير التي دفعها له جوسلين ، وتعهد بدفع الباقي باعتبار أن جوسلين كان في عهده ومتحفظا عليه عنده ، وفي هذا الوقت تعين حاكم جديد للموصل يدعى جاولي (٥٦) ، فسمع بجوسلين ولكنه لم يكن قد رآه ، وعندما سمع أنع وضع نفسه رهينة لدفع الذقود ، رغب في رؤيته ، وعندما حضر الرسل معهم مبلغ الخمسة وعشرين الف دينار ، وتعهد صاحب قلعة جعبر وكفالاته بدفع الخمسة والأربعين الفا الباقية ، أطلق سراح بلدوين ، ولكنه رغب في رؤية جوسلين شخصيا ، لأنه سمع بشهامته وأنه محارب شجاع ممتاز ، وعندها عمد صاحب قلعة جعبر إلى إرسال جوسلين إلى الموصل ، بعد أن زوده بهدايا وثياب وحصان مطهم وأسلحة فرنجية ، وعندما وصل جوسلين جمع الحاكم أفضل فرقه وعساكره للقاءه على أرض العرض ، وأمر جوسلين أن يعرض مهارته الحربية أمامه فقام هذا باللعب برمحه ، وبمناورات حربية اعجبت الوالي ، فأنقص عشرة

الاف دينار من فدية بلدوين ، عندها ترجل جوسلين وقبل الارض بين يدي جاولي وشكره ، وكتعبير عن امتنان الوالي لسـلوك جوسلين هذا أمر بخـصم عشرة الاف اخرى من الفدية ، وفي اتناء عودتهما الى المدينة أقام الحاكم له وليمة كبرى ، وخصم عشرة الاف اخرى ، وقد اقام جوسلين بضعة ايام في الموصل اظهر له الحاكم اثناءها كل مودة واقسم له أنه لن يحاربه ، وجعله يقسم الا يحاربه واتفقا الا يتحاربا ماداما على قيد الحياة بل على العكس ان يساعد بعضهما بعضا وقت الحاجة ، تم اعطى جوسلين الهدايا ، واطلق سراحه نهائيا ، وسامحه بكل ما بقي من فدية بلدوين ، وسمح له بالذهاب بامان ، وهكذا وبمـشيئة الرب اطلق سراح الاثنـين .

وعندما اطلق سراحهما (٥٧) ، جمع رتشارد الذي كان يحكم الرها كل ما استطاع جمعه من المدينة ، وتوجه عائدا الى ارضه في مرعش ، وحالما وصل بلدوين وجوسلين الى الرها وعلما بما قد فعله تانكرد وريتشارد هناك استشاطا غيظا من جديد ، واخذا يستعدان للمعركة ، وارسل جوسلين رسالة الى جاولي صاحب الموصل يطلب منه العون فارسل هذا عددا من الجنود التركمان لمساعدته ، والتقت الجيوش في الاراضي التابعة ليرجبة بين كلز ودلوك (٥٨) وقد ارتفع غبار المعركة الى عنان السماء ، وكانت نتيجة المعركة أن هزم الأتراك وهربوا ، ولحق بهم رجال انطاكية واعملوا بهم القتل ، ثم هرب بلدوين ورجاله ، وهكذا كانت نتيجة المعركة ، وبعد زمن اتفق الفريقان وحل السلام بينهما ورجعت الالفسة والمودة الى سالف عهدهما .

وفي عام ١٤١٧ عندما كان ملوك الفرنجة في حالة سلم ، جمع مودود حاكم الشرق جيشا لجبا لايعد ولايحصى وتوجه الى الرها اولا وقد عسكر في السهل الشرقي حول قلعة كاساس (٥٩) وقد أرسل مودود عددا من الفرسمان لنهب البلاد ، فقطعوا الاشجار والحدائق واتفوا الارض ، وخرّبوا الديارات ولكنهم لم يقتربوا من

المدينة لمحاربتها ، بل نصبوا حولها الات الحصار ، واكتفوا بالاقتراب منها ثم رحلوا عنها .

وعندما سمع الفرنجة في انطاكية بهجوم مودود على الرها بدأوا بجمع جيش على جناح السرعة لانقاذها ، وتحركوا بسرعة نحو الفرات وعبروه ، وعندما سمع التركمان بمقدمهم انتقلوا الى نهر الجلاب ، واتخذ الفرنجة موقعا لهم امام معسكر مودود ، وكان جيش الفرنجة يحوي كل من بلدوين ملك بيت المقدس صاحب الرها سابقا وابن صنجيل صاحب طرابلس ، وتانكرد صاحب انطاكية ، وعدد كبير من الجند والخيول ولكن كان ينقصهم القمح والعلف ، فقد كان (مودود) قد خرب البلاد واتلف المؤن ، وقد قاسى الفرنجة من قلة المؤن ، وكعادتهم لم يكونوا يتحلون بصفة الصبر(٦٠) وصمموا على العبور الى غرب الفرات وهم لا يزالون في مواجهة العدو ، وفي الوقت الذي كانوا يسيرون في طريقهم الى سميساط وهم يشكلون جيشا كبيرا يتبعه عدد هائل من القرويين وسكان المدن مضى فرنجي من مطايا الشيطان وادواته ، كان قد تشاجر مع رئيسه ، مضى الى معسكر الاتراك على نهر الجلاب واخبر مودود ان الفرنجة فروا وهم في حالة يائسة قد اضعفهم الجوع ، وانهكتهم مصاعب الطريق وقال له : « اذا اسرعت الى مطاردتهم فانك سوف تلحق بهم افدح الخسائر » ، وفي الحال اصدر مودود الاوامر بالهجوم ، واخذ المنادون يصرخون والابواق تنفخ ، وتقدم المحاربون الاشداء وتبعوا جنود الفرنجة الذين اصابوا بالدهشة ، ولم يعلموا ماذا حدث ولم يستطيعوا ان ينظروا امامهم او خلفهم ، وعندما وصلوا الفرات تقدم المحاربون اولا بينما انتظر المشاة وحاملوا الامتعة في الخلف ، وكان الرب غاضبا على شعبه ، وخصوصا على اهالي الرها الذين شكلوا الاكثية الجيش ، وفجأة انقض عليهم التركمان وهاجموهم كالجزارين واخذوا يذبحون دون رحمة او شفقة ، ولقد غرق منهم اكثر مما قتل ، وكان التركمان يطعنون الفرقي بالرماح واخذوا الكثيرين منهم اسرى ، ثم استولوا على الغنائم والمؤن والاتصال ، وهكذا ال زحف الفرنجة الى نهاية تعيسة ، وهنا قفل مودود راجعا

الى ارضه وبلاده ، وعسكر حول المدينة واتلف الاراضي والمحاصيل الزراعية حولها ، وقطع الاشجار والحدائق التي بقيت (٦١) وحاصر المدينة وسبب لها الكروب طيلة الصيف ، وانتشر الخوف وحل الرعب والبؤس في المدينة بسبب قلة الاطعمة ، وتولاهم اليأس وهلعت قلوبهم ، لانهم زرعوا وتعبوا وشقوا سنة بعد سنة ، لكنهم لم يحصدوا شيئا ، وقد ارسل لهم مودود يمنيهم ويطلب منهم تسليم المدينة له ، وبذلك يصيبهم الخير بدلا مما هم فيه من التعب والويل ، ولم يرسل له اهالي الرها اي جواب ايجابي ، ولكن عشرون ارمنيا تأمروا مع مودود لتسليم المدينة وخيانتها ، فنقل معسكره ونصبه مقابل سروج ليومهم اهالي الرها انه قد يذس وذهب ، وبذلك لايهتمون بحراسة السور ، وبعد منتصف الليل في ليلة الأحد اتى التركمان بسرعة من الشرق وتسللوا من بين الاسيجة في الحدائق حتى لايلاحظهم احد وارسلوا بعض المحاربين الاشداء الى المكان المتفق عليه قرب السور في شرقي المدينة داخل الجسر السفلي فوق الخندق المملوء بالماء ، حيث كان هنالك مكان مناسب للمغامرة ، فقد كان هنالك برج في الزاوية يحرسه رجل من اهل الرها يدعى سيروس ، وهنالك تقابلوا طبقا للاتفاق ، فانزل الخونة بعض الحبال وسحبوا سلاام قوية ثبتوها على السور ، وبدأوا يتسلقونه ولما راهم الحراس على السور اخذوا يصرخون إن الاعداء قد تسلقوا السور ، وسمع الاعداء هذه الاصوات وبدأوا يحدثون ضجة وجلبة في الغرب ويضربون الطبول وينفخون بالابواق حتى يظن اهالي المدينة ان مشهد المعركة من الغرب فيتجهون الى هناك ، ويتركون الخونة وشأنهم حتى يستطيعون اتمام التسلق على الاسوار ، وقد قتلوا كل من كان في تلك الناحية ولم يستسلم لهم ، اما سيروس فقد ظل صامتا اذ انتابه الخوف وفقد ارادته فتركهم ينفذون خطتهم ، وقد صعد الى البرج حوالي ستون رجلا ، وعندما طلع النهار راي الجميع التركمان على السور وعلى البرج فاصيب الفرنجة وزعمائهم بالذعر عندما علموا ان هناك خيانة في المدينة ، واذا بالعدو في الخارج والسور يغص بالتركمان والناس يتراكمون الى بيوتهم واطفالهم ، وصدف ان كان جوسلين صاحب تل باشر في

الرها في ذلك اليوم ، فقام باعمال الابطال اذ صعد الى السور من ذلك الجانب ، واقترب من العدو وعندما رآه الاعداء تجمعوا في البرج الكبير ووقفوا على سطح فوقه وامطروه بسوابل من الذنشاب والحجارة ، ولكنه دخل البرج الذي كانوا يقفون على سطحه وكره شجاعة واقدام ، ومد سيفه من خلال نافذة مخصصة لرمي السهام وقطع حبال السلالم التي كانوا يصعدون عليها بينما كان كثير من الرجال على تلك السلالم فسقط الجميع الى الأرض مهشمين وأما الذين كانوا فوقهم فقد ارتجفت قلوبهم لما رأوا هذا المنظر ، وفقدوا الأمل ، فبادر جوسلين بالصعود الى حيث كانوا وقد ضربوه بالحجارة من الأعلى وكسروا درعه ، فأخذ كيسا مملوءا بنشارة الخشب كان ينام عليه الحرس ووضعه فوق رأسه وتسلق بكل جرأة وقوة ونزل بينهم فهربوا ، وقد أوقع بعضهم بضربة من سيفه وبعضهم قفز الى الأسفل وتحطم ، وهكذا اخفقت المؤامرة ودفنت في مهدها وهي لم تكذب ، وقد رجع مودود الى بلاده ، بينما أخذ الفرنجة يحاكمون المتآمرين والقوا القبض على كثير من المذبذبين والأبرياء ، وقطعوا الأيدي وجدعوا الأنوف وقلعوا الأعين ، وقد مات الكثيرون من جراء ذلك ، وأعدم الآخرون.

وبعد بضعة سنوات (٦٢) ذهب مودود الى دمشق وفلسطين وطبرية وخرب البلاد ونهب وسلب ودمر وأخذ كثيرا من الأسرى ، وعندما وصل الى دمشق ودخل الجامع الكبير ليصلي في يوم الجمعة كعادة المسلمين قام الاسماعيليون باغتياله (٦٣) وفي السنة نفسها (٦٤) مات تانكرد صاحب انطاكية الذي لم يكن له ولد ، فورثه ابن أخته روجر ، وكان شابا متفطرسا ومتعجرفا ، وكان روجر متكبيرا ووسيما ، فجمع فرقا كبيرة من الجند وتزوج أخت بلدوين صاحب الرها ، وهاجم بجيشه قلعة اعزاز الحصينة في وادي كلز ، وقد حفر سراديب في الأرض تحت الأسوار ووضع عوارض من الخشب داخلها ثم أشعل النار بالعوارض فترنح السور وسقط ، فهجم الفرنجة من خلال الثغرة التي حصلت ، واستولوا على الحصن

وزبحوا المسلمين في داخله ، وهكذا استولى روجر على هذا الحصن الشهير (٦٥) .

وفي التاسع والعشرين من شهر تشرين الثاني عام ١٤٢٢ وعند الفجر يوم الأحد ضربت هزة أرضية مدينة جرمانيكما التي هي مرعش (٦٦) فهدمتها كلياً ، ودمرت المعابد وأديرة الرهبان وسقط السور بكامله وقتل أربعة وعشرون ألف شخص غير الغرباء وأكثر من مئة من رجال الدين والشمامسة ومحدث قلعة منصور وأزيلت وأماكن أخرى كثيرة من الوجود ، وفي هذه السنة غضب بلديون صاحب الرها من جوسلين ووضع في السجن وعذبه ، وبعد أن أطلق سراحه ذهب إلى بيت المقدس ، ونزل عند بلديون الذي رحب به وأحبه وجعله حاكماً لطبرية والجليل (٦٧) ، وهناك ولد له ابن سماه جوسلين ، وفي هذه السنة مات رضوان صاحب حلب (٦٨) . وكان السلطان السلجوقي يعيش في إيران ، وقد أرسل ولاية لساان البلدان الغربية ، وعندما قتل مودود في دمشق أرسل البرسقي إلى إقليم أقور (الموصل) ، فتقدم هذا وعسكر حول الرها وأتلف الحدائق وأحدث الأضرار العظيمة في الأراضي (٦٩) ، وعبر الفرات ، وخيم في أراضي حلب وعمل كل ما في وسعه لتخريب الأراضي التابعة للمسيحيين قدر استطاعته ، ثم عاد أدراجه وفي السنة التالية أتى كالعادة إلى الرها وعاث في الأرض وأتلف المحاصيل وسبب أضراراً عظيمة ، ثم تحرك متجهاً إلى حلب واستعد لحرب الفرنجة الذين جمعوا جيوشهم ، وعسكروا بين حلب وانطاكية ، وفي عام ١٤٢٧ نظمت الصفوف ونفذت الأبواق ، ودقت الطبول ، وقد هب الرب النصر للفرنجة وهزم التركمان وزيحوا ، ونهب معسكرهم بينما هرب البرسقي (٧٠) ومعه بضعة رجال .

وكان أبو الغريب وهو أرمني يحكم قلعة البيرة الحصينة (٧١) وقد قام بلديون صاحب الرها ومعه قريبه جاليران على رأس جيش كبير بحصار هذه القلعة مدة طويلة ، لأنه لم

يستطع الاستيلاء عليها بالهجوم المباشر ، ولما لم يستطع ابو الغريب أن يحصل على اية مساعدة ، استسلم للفرنجة على شروط ، وتزوج جاليران ابنته ، وكانت القلعة هي المهر لهذا الزواج ، وهكذا استولى الفرنجة على تلك القلعة .

وفي عام ١٤٢٥ (٧٢) ذهب بلدوين صاحب الرها للحج الى بيت المقدس وكان بلدوين صاحب بيت المقدس قد جمع جيشا وزحف على رأسه الى مصر ووصل الى الفرما (٧٣) ومات هناك وكان قبل وفاته امر أن تدفن جثته في قبر أخيه غودفري ، وأن يصبح بلدوين صاحب الرها ملكا لبيت المقدس ، وقد نفذ هذا ، وعندها دعا بلدوين الكونت جوسلين صاحب طبرية واحل السلم بينهما ، وهكذا أصبح بلدوين حاكما لبيت المقدس ، وجوسلين حاكما لطبرية وكان جوسلين عندما عاش في طبرية قد ربح عدة انتصارات ، وأصبح مرهوب الجانب في جميع أنحاء المنطقة .

وكان ميخائيل بن قسطنطين وهو أرمني يحكم أراضي كركر (لاقى جستادين الأب حتفه بعد أن دفن وهو أسير في سمسياط عند حدوث الزلزال الذي دمر مرعش) وكان ميخائيل هذا شابا متعجرفا قام بارتكاب الكثير من الأعمال الشريرة بدعمه للعصابات واللصوص في جميع الأنحاء ، وكان بلك بن أرتق (الذي حكم سروج سابقا) والآن صاحب هنزيط وحصن زياد (خرتبرت) (٧٤) قد حذر ميخائيل من مغبة أعماله الشريرة ، وطلب منه أن يكبح جماح اللصوص الذين يهاجمون التجار والمسافرين، لكن هذا لم يعر هذا التحذير أي اهتمام وكانت الشكاوى ترد الى بلك باستمرار حتى انه لم يعد يستطع الاحتمال ، فجمع جيشا عظيما من التركمان في شهر كانون ، وهو شهر قارس البرودة ، وتوجه الى أراضي جرجر الأهلة بالسكان وقد رافقته العناية الالهية وساعده وأرشدته لأن مياه نهر الفرات كانت متجمدة في ذلك الوقت ، فعبر هو ورجاله النهر بسهولة تامة فوق الجليد ، بينما لو ود ان يعبره بالقوارب لاستغرق ذلك منه

خمسة أيام على الأقل ، ودخل إلى أراضي جرجر في المساء ، وأخفى رجاله بين الصخور الشاهقة ، ولم يعلم بهم أحد ، فالترب كان غاضبا على أهل تلك البلاد وفي تلك الليلة هطلت كميات كبيرة من الثلوج ، وهكذا استطاع التركمان ان يقتفوا على الثلج أثار كل أولئك الذين هربوا من القرى المجاورة الى التلال أو المراعي العليا وقتلوهم أو أخذوهم أسرى ، وانتشروا كالطوفان خلال الأراضي وأحرقوا البيوت والقرى وأنزلوا الخراب بالمنطقة .

وكان بلدوين عندما ذهب للحج في بيت المقدس عين جاليران صاحب البارة (٧٠) نائبا عنه في الرها ، وجمع هذا ما استطاع جمعه من العساكر ، وهاجم معسكرات التركمان في السهول المتاخمة لجبل حزمه *ՀՏՄԵԼ* شرقي الرها ، وفي أراضي أيلغازي بن أرتق ، ففاجأهم على حين غرة ، وأسر خمسمائة من الرجال والنساء والأطفال ومئتي حصان ومئة ألف رأس من الماشية والأبل والماعز ، وقتل كثيرا من المحاربين وجلب الأسرى الى الرها وقد حدث هذا في شهر آذار عام ١٤٢٦ (٧٦) وكان سببا في اندلاع الفتنة والشعر ، وغضب أيلغازي وكان قد استلم زعامة آل أرتق ، فجمع جيشا عظيما وعسكر قرب الرها في زمن الحصاد ، ولكنه ابتعد قليلا عن الحقول والمحاصيل الزراعية ، ولم تقع الحرب بل عقد المسلم بينه وبين الفرنجة الذين أعطوه جميع الأسرى التركمان الذين يمتلكونهم ، فغادر المدينة دون ان يلحق بها اي ضرر ، ثم انتقل الى حران واحتلها ، وبعد ذلك عبر الفرات واحتل حلب وما جاورها ولذلك أصبح أقوى زعماء التركمان وخضع له حتى أمراء إقليم أقور ، وجمع جيشا غزا به انطاكية.

وعندما سمع روجر صاحب انطاكية بزحف أيلغازي تقدم للملاقاته ، وقد كان بلدوين أتيا من بيت المقدس مع جاليران لمساعدته ، ولكن ذلك الشباب المتعجرف لم ينتظر قدوم الملك لأنه فكر انه قادر على انزال الهزيمة بالتركمان لوحده ويحتفظ لنفسه بمجد النصر ، وتقدم بدون تردد تجاه معسكر المسلمين ، وكان الأتراك

يتوقون لقتاله قبل قدوم الفرنجة لنجدته ، وأحاطوا به احاطة السوار بالمعصم وأمطروه بوابل من النبال كسحب من البرد وكان الرب غاضبا على الفرنجة وأشاح بوجهه عن روجر الذي قتل اثناء هذه المعركة ، ولم يجد احد جثته لابين الموتى ولا بين الاسرى (٧٧) ، وقد استولى الاتراك على الامتعة وجميع ما كان بحوزة الفرنجة .

وبعد موت روجر وصل بلدوين ملك بيت المقدس ، وكونت طرابلس وجاليران من الرها ، وخرج رجال انطاكية لمقابلة الملك ، فاستلم زمام السلطة ، وجمع الجنود الموجودين ، وزحف لمقابلة ايلغازي ، وابتدا الالتحام وكان الرب غاضبا على التركمان لذلك هزم ايلغازي وقتل عددا كبيرا من عساكره ، ونجا بصعوبة بالغة مع بضعة (٧٨) من اتباعه حيث ذهب الى حلب .

ورجع بلدوين وهو مزهو بانتصاره الى انطاكية ، وتوجه الى بيت المقدس ، حيث استدعى جوسلين من طبرية ، وبعث به عام ١٤٣٢ حاكما على الرها (٧٩) ، وهذا ما بهج قلوب سكانها ، وقد رجع جاليران الى البارة ، ثم جمع جوسلين جيشا هاجم به المعسكر التركي وغنم كثيرا من الاسرى ، وقد انتشر اسمه خارج منطقتة ووصل صيته حتى شمال ما بين النهرين ، وحلت رهبته في قلوب التركمان حوله .

والتجأ التركمان الذين أخذ رفاقهم عبدا الى ايلغازي صاحب ماردين ، واقنعوه بأن يهاجم الرها وينتقم لهم ، فجمع جيشا عظيما ، وعسكر حول الرها والتهم المحاصيل ، وقطع الأشجار والحدائق ، ونهب وسلب ثم رحل (٨٠) .

وأصبح ايلغازي قويا وارتفع شأنه لانه كان يحكم زيادة على اراضيه : اراضي أبناء اخيه سكرمان ، وارضى ابن عمه داود حتى بلاد اقور و ارمينية ، وارض العبرانيين (٨١) ، وكان احد اقاربه يحكم جميع ارمينيا ، وقد بدأ الخلاف يدب بينهما وبين الملك داود ملك العبرانيين الذين كانوا وثنيين ، وكان ايلغازي جريئا

جدا ، فجمع كل اقربائه ومعهم قوى عظيمة ، وغزا أرض العبرانيين ، وعندما سمع الملك بهذا الأمر جمع جيوشه وتقدم لمقابلته ، وحدثت معركة قهر بها ايلغازي وطارد العبرانيون فلوله ، وقتلوا كثيرا من رجاله ، ونهبوا كل مقتنياتهم ، وهكذا رجع ايلغازي يجر اذبال الخيبة والعار ، وهرب الى بلاده ، وبعدها بقليل اصابه المرض فمات (٨٢) وخلفه ابنه تمرتاش الذي حكم في ماردا (مارين) ودارا وميفارقين ، اما بلك ابن عمه فقد احتفظ بقلعة زياد هنزيط (٨٣) .

وفي ملاطية حكم رجل من أسرة السلاجقة ملوك التركمان العظام (٨٤) بعد زوال حكم ابناء الدانشمند ، وبعد موته حكم ابنه القاصران مع امهما ، وقد حكم مسعود اكبرهما في قونية واراضيها المتوغلة تجاه الاغريق (البيزنطيين) واما غازي بن دانشمند فحكم في سبسطيه وقيصرية ، وقيصرية الجديدة ، وقد أصبح متكبرا متعجرفا وطاغية وصمم على احتلال ملاطية ، وعمل كل ما في وسعه للقبض على صاحبها ، واخذ المدينة منه ، حتى انه رغب بتزويج ابنته له ، ولما لم يستطع الاستيلاء على المدينة بالحيلة والخداع قرر استعمال القوة ، فجمع جيشا وحاصرها ، وضيق عليها الحصار وسبب المجاعة فيها حتى انتشر بها الوباء ، فاستولى عليها في عام ١٤٤٣ (٨٥) ، وهكذا تعاضمت قوته ، واصبحت املاكة تشمل كبدوكية وملاطية وجميع المدن بينها وبين بحر الخزر ، واصبح يغزو الاراضي الاغريقية (البيزنطية) بانتظام ، وبدا بالنهب والسلب في منطقة غلاطية وكولونيا وهرقلية ، وجميع شواطئ البحر الشمالي ، وقد اخذ العبيد وسبب الكثير من الاذى والضرر .

وتزوج جوسلين كونت الرها بابنه روجر صاحب انطاكية وحصل على اعزاز كمهر معها ، ثم ذهب ليجلب عروسه الى الرها وامضى ليلة في البارة ، واخبروه ان التركمان قد اغاروا على المنطقة واخذوا كل من لا قوه اسيرا ، وكان هؤلاء من جيش بلك صاحب هنزيط وقلعة زياد ، وقد كان بلك قد اتى من حلب ومعه اربعة الاف فارس

أرسلهم في جميع الجهات للنهب والسلب بينما عسكر بنفسه قرب بنر يسمى هايج ، وهو ينبوع دائم طوال السنة في مملكة الرها عند إحدى القلاع الشهيرة مقابل رأس كيفا ، وعندما سمع الفرنجة هذا الخبر اشتاقوا لمطاردة الغزاة ، إذ لم يكن لديهم أية فكرة أن بلك كان معسكرا هناك ومع جميع عساكره ، وقد قام جاليران بتشجيع جوسلين خاصة وذلك لأن الأرض أرضه ، وبدأوا في الهجوم بسرعة ليلا ممتطين خيولا ضعيفة وهزيلة ، وطاردوهم وهم يظنون أن باستطاعتهم اللحاق بهم في أراضي رأس كيفا ، وعندما وصلوا إلى أمكنة رأوا فيها آثار أقدام الغزاة تبعوهم طيلة الليل حتى منتصف النهار ، وكان قد أصابهم التعب والعطش وأرهقهم الغبار واشتداد الحرارة ، ومع هذا تابعوا مطاردتهم حتى وصلوا إلى المعسكر العظيم لجيش بلك ، فرأوا جندا عظيما بينما كانوا قلة منهكة بسبب الجوع والسفر الطويل ، وراهم التركمان ولم يعد بمقدورهم التراجع ، وعندما تقدموا لسقي خيولهم ، ساد التركمان بالاصطفاف على ضفة النهر وأمطروا وأبلا من الذناب كل رجل من الفرنجة حاول هو أو حصانه أن يقترب من النهر ، ثم أحاطوا بهم وقتلوا الكثيرين ، وأخذوا الباقين أسرى أحياء ومنهم جوسلين وجاليران وفرسانهم ، وجلب هؤلاء إلى حضرة بلك الذي لم يكن يصدق ما يرى إذ لم يكن يحلم أن مثل هؤلاء الأمراء قد أصبحوا أسرى تحت رحمته ، وهكذا أسر هذان الأميران الشهيران وهما في غفلة ولا يتوقعان ذلك ، وأخذهما بلك إلى أمام باب الرها وهو يتوقع أن تسلّم له المدينة ، ولكن الأهالي أهانوه ولم يتفوهوا بسأي كلمة عن السلام ، لذلك وضع أسراهما في قلعة زياد.

وكان الملك بلدوين في أنطاكية عندما سمع هذه الأخبار ، فتوجه في الحال إلى الرها وبقي هناك ، ووضع حامية فيها تحت قيادة راهب محترم يدعى غودفري الموين حتى يعرفوا ماذا سيحدث لأسرى بلك ، وفي هذا الوقت كان ميخائيل الأرمني صاحب كركر مهددا من قبل الأتراك ، ولما كان يعلم حق العلم أنه لا يستطيع الاحتفاظ بالقلعة لذلك أعطاها وسلمها للملك بلدوين ، واستلم

اماكن اخرى لاعالة نفسه في هذه الحياة ، فبعد أن سلم كركر استلم ميخائيل دلوک مکانها ، وسار بلدوين الى انطاكية واستمر بك بالهجوم على كركر ونهبها ، وكذلك على سمييساط « وچاكسي » وقلعة منصور فاضطر بلدوين للرجوع ثانية لانقاذها ولجلب القمح من كيسوم وسمييساط، وعندما سمع بك أن بلدوين في كيسوم جمع جيوشه وتوجه الى نهر سنجة بين كيسوم وسمييساط. ولم يكن يعلم شيئا عن قدوم بك وأنه أصبح قريبا منه لذلك استمر في اقامة الحفلات والولائم بمناسبة صعوده الى كيسوم ، وفي الثلاثاء سار هو وجنوده دون اتخاذ أية احتياطات حتى وصلوا الى قنطرة سنجة الشهيرة وكانوا على بعد حوالي فرسخ واحد منه (الفرسخ = ٤ أميال) وكان معظم خيالاته وفرسانه بعيدين عنه ، فهم لم يكونوا قد وصلوا الى النهر بعد ، وكان الملك سائرا في المقدمة وأمامه الراية ، ومعه بضعة مرافقين ، وعندها فاجأه كمين أعده بك ، واحاط به التركمان كالذئب الكاسرة من جميع النواحي احاطة الاسوار بالمعصم ، وهم مسلحون ومجهزون ومتعطشون لنيل الغنائم ، عندها أسروا الملك وابن أخته وكان شابا وسيما ومعه كثير آخرين ، وقد قتل منهم كثيرون ، واخذ بك الملك الى كركر وعذبه حتى سلمه القلعة فاحتلها بك واكتفى بذلك.

وتخلصت البلاد من اللصوص وقطاع الطرق الذين عاشوا في الأرض فسادا ، ونهبوا الفقراء ، واخيرا حل السلم ، وقد قيل ان بك كان يأمر بقتل أي تركماني على الخازوق لسرقته قطعة لحم من رجل فقير ، ولم يكن يسمح لأي شخص أن يهين أي مسيحي ولو بكلمة ، ثم وضع حامية في كركر ، ونقل الملك والأسرى الآخرين الى قلعة زياد ، حيث انضموا الى جوسلين وجاليران ، وكان جوسلين قد أسر في شهر ايلول ، ووصلت أخباره الى الرها في أمسية عيد الصليب ، فألغيت الاحتفالات والمواكب في تلك السنة ، وحل محلها النذب والنواح ، وكان أسر بلدوين في آخر ثلاثاء من شهر نيسان ، وروي أنه عندما غادر بك قلعة زياد قال لجوسلين : سوف

اجلب الملك ليكون معك انشاء الله ، وهكذا كان ، فبعد ستة اشهر التحق بهم الملك بلدوين .

وللمرة الثانية في هذه السنة عسكر بك حول الرها ، واتلف المحاصيل الزراعية والحدائق وخرب الارض ، ومن ثم ذهب الى حران التي سلمت له ، ثم الى حلب التي خضعت ايضا بدورها له ، وبعدها بدأ يغزو الفرنجة في تل باشا وبلوك واعزاز ، واخذ كثيرا من الاسرى والقرى بعد ان نهبها وارسل من فيها الى بلة ، ثم استولى على قلعة منصور ، وهزم رجال خلاط (٨٦) وأحدث الضرر العظيم في اراضي الفرنجة في ذلك العام .

وفي شهر آب من تلك السنة وهي ١٤٣٥ (٨٧) قام عشرون رجلا من الارمن ممن كان يخدم في حصن كيسوم مع غودفري الموين والملكة فذهبوا الى قلعة زياد متنكرين بشكل جنود فقراء ، وكان عشرة منهم يحملون العنب والفواكه والطيور الداجنة ، وقد تظاهر هؤلاء انهم قرويون اتوا للشكوى ضد اليهم الذي ظلمهم ، وبقي الآخرون خارجا وهم مستعدون للالتحاق برفاقهم عندما تحين ساعة العمل ، وذهبت الجماعة التي تحمل الأحمال الى بوابة الحصن العليا وأخبروا البواب عن سبب مجيئهم ، وهو الشكوى ضد اليهم ، فطلب منهم الانتظار بين البوابات بينما يخطر شحنة القلعة بقدمهم ، وصدف ان كان الشحنة يقيم وليمة لضباطه ، وقد أذرت الخمرة بهم ، وكانوا بمنتهى الغبطة والسرور ، وكان كثير من الحرس يشاهدون الوليمة ولم يبق سوى اثنان أو ثلاثة مع البواب على البوابة ، وعندما ذهب الرسول لاختبار الشحنة عمد الرجال لاختطاف السيوف المعلقة بين البوابات وقتلوا البواب وكل من وجدوه هناك ثم دعوا أصدقائهم الذين كانوا بانتظارهم في الخارج وانضم هؤلاء اليهم وفتحوا الأبواب واندفعوا وقتلوا جميع الضباط الذين كانوا يشتركون في الوليمة بدون استثناء ثم فكوا أسرار الاسرى ، واحتلوا القلعة وساعدهم جميع الارمن الموجودين داخل المدينة ، وحالما انتشر خبر هذه الواقعة أرسل الخببر الى بك في

حلب ، وتجمع الأتراك من كل حدب وصوب ، وأحاطوا بالقلعة وراقبوها عن كثب حتى لا يخرج منها أحد أو يدخلها أحد وعمد جوسلين في الليلة الأولى ومعه اثنان أو ثلاثة آخرون الى الهرب بشجاعة ، فاخترقوا الحصار ونجوا ، وكان جوسلين قد وعد الملك بالأرتاح حتى يصل الى بيت المقدس ويجلب جيشا لانقاذه ثم سار مارا بكيسوم ، ثم تل بأشر ثم انطاكية ، فالى بيت المقدس .

وزاد فرح الفرنجة لدى سماعهم أن بلدوين وجاليران قد أطلق سراحهما وأن قلعة زياد قد سقطت ، ولكن عندما سمع بك بما حدث في قلعته الحصينة ، عاصمة مملكته ، وبيت ماله ومخزن ثروته بدأ بالتحرك حالا مع فرق جيشه ، ووصل الى قلعة زياد بمدة أربعة أيام ، اي بعد عشرة أيام من حدوث الكارثة ، وهاجم القلعة بضراوة ونصب آلات الحرب التي حطمت السور دون توقف دقيقة واحدة لنلا يحضر الفرنجة لنجدتها ، وفي بضعة أيام فتحوا ثغرة في السور ، وطلب بك تسليم الحامية ووعدها أن يحفظ حياة أفرادها لأنه لم يرغب أن يهاجم القلعة ويدمر سمعته وشرفه ، ثم هدم برجا آخر واقفا فوق صهريج المياه وعندما حدث هذا فقد المحاصرون الأمل وخرج جاليران بنفسه ليطلب كلمة الشرف من بك لحفظ حياتهم ، وأعطاهم بك كلمة الشرف ، فسلموا له القلعة فدخل بك وبدأ بتعذيب الأرمن وسلخهم أحياء ، ثم أعيد الملك وجاليران الى سجنهم (٨٨) السابق.

وذهب جوسلين الى بيت المقدس ، وجمع جيشا ونزل خارج حلب في جبل جوشن مقابل البوابة الغربية لمدة ثلاثة أيام ، وأخذ الجزية منهم ، وقد أراد أن يخلص قلعة زياد ، لكنه سمع أن بك قد احتلها وقتل الأرمن لهذا عمد الى هدم المساجد الواقعة على الجبل الذي كان نازلا به ، وكان أحدها مشهد الدكة وأخر بني للملك رضوان ، ثم قطع الأشجار وخرّب الحدائق ورجع (٨٩) .

وفي حلب طلب أبو الحسن بن الخشباب قاضي المسلمين من

المسيحيين في المدينة أن يعيدوا بناء المسجدين وكان هناك أسقفان في المدينة أحدهما أرثوذكسي اسمه غريغوري أو شمشوم الرهاوي والآخر ملكاني وكانت خزانة الكنيسة لا تسمح بتمل هذه النفقات فقالا: إننا لانسطيع أن نفتح علينا بابا ، إذ أنه كلما هدم مسجد توجب أن نعيد بناؤه من « أموال الكنيسة » ، وعندما سمع المسلمون هذا الكلام قاموا في يوم الجمعة بناء على أمر القاضي فهجم ألوف من المسلمين ، ومعهم النجارون والفؤوس على الكنائس ، فاقحموا كنيسة القديس يعقوب وكسروا المنبر وحطموا ملائكة المذبح وشوهوا الصور ، وفتحوا محرابا في حائط الحرم الجنوبي ، وبدأوا بالصلاة هناك ، وحولوا الكنيسة إلى مسجد ، وقد حدثت العملية نفسها في كنيسة ثيوتوكس الاغريقية وكنيسة النساطرة ، ونهبوا الكنائس وحجر خلوات الأساقفة ، وقدهرب الأسقف الملكاني إلى أنطاكية والأرثوذكسي إلى قلعة جعبر ، وقد حدث كل هذا في عام ١٤٣٥ عندما كان أثناسيوس بن قماري بطركا (٩٠)

وعندما سمع بك بتحركات جوسلين أسرع في جمع قوات عسكري بها قرب منبج وخرب الأراضي التي لم تكن تابعة له وذلك عقابا للأهالي الذين لم يساعده ، وفي أثناء القتال ضد منبج أصيب بسهم أطلق عليه من أعلى السور فمات ، فأخذوه إلى حلب ودفن هناك بعيدا عن أسرة ارتق (٩١) .

وفي تلك الأثناء وفي أثناء الحوادث التي حدثت في قلعة زياد في عام ١٤٣٥ ، تجمع بعض الفرنجة ويدعون البنادقة وجمعوا جيشا عظيما وجهزوا كثيرا من السفن وأبحروا في البحر إلى فلسطين تحت قيادة ملكهم المدعو الدوج ، فوصلوا إلى ساحل صور وصيدا ورسوا بسفنهم هناك ، وعندما سمع الفرنجة بقدمهم أتى بطرك بيت المقدس لاستقبالهم لأن الملك بلدوين كان أسيرا ، وقد حاصروا صور التي كانت لاتزال تحت حكم المسلمين وأصبحت ملجأ لكل من احتل الفرنجة بلادهم ، وهاجم هؤلاء صور برا وبحرا وحاربوها

بمختلف أنواع الأسلحة ونصبوا المجانيق والعرادات التي قذفتها ليلا ونهارا ، وبنوا برجين من الخشب مؤلفين من سبع طبقات ، وكل برج طوله عشرة أذرع وغطوا البرجين بأنواع قوية من خشب البلوط الرطب التي لا تؤثر بها نيران النفط ، وعندما انتهوا من بناء البرجين سحبوهما ووضعوهما أمام الأسوار ، والآن لم يكن للمدينة سور واحد بل ثلاثة أسوار عالية يفصل بينها ثلاثة أسوار صغيرة ، وخذق عميق بينها ، وكانت الأسوار مسلحة تسليحا قويا ، ووجد عليها جنود مسلحون بأقوى الأسلحة ، ورجال صور مشهورون بأنهم محاربون أشداء .

واستمر الحصار مدة سبعة أشهر ، وقد فتحت ثلمات في الأسوار في بضعة مواقع وهدمت عدة أبراج ، ولكن الحامية لم تتأثر لأن الطعام كان موفورا لديها إنما أصبح أفرادها في كرب عظيم عندما نفذ الطعام ، ولما لم يتمكنوا من الحصول على أية مساعدة من حاكم مصر توجهوا إلى صاحب دمشق ليساعدهم ويحكمهم ، وكانت المراسلات تجري بواسطة الحمام لأنه لم يكن هناك مجال للإنسان لدخول المدينة أو الخروج منها ، وجمع حاكم دمشق جيشا لجبا لمساعدتهم وأرسل لهم رسالة بواسطة الحمام أيضا تقول أنا قادم بعد أيام للتفريج عنكم وبصحبتي جيش عظيم كونوا أقوياء ، استمروا في المقاومة ولا تنهوا ولا تضعفوا ، ولكن بمشيئة الرب وقعت الحمامة بيد الفرنجة في معسكرهم فقرأوا الرسالة ، وكتبوا رسالة أخرى ذات معنى معاكس نصها :

« لقد كتبتم لنا بأن نأتي لنجدتكم . نحن لانستطيع القدوم لأنه ليس لدينا عساكر تقاوم هؤلاء الذين يحاصرونكم فسلموا المدينة ، وتأكدوا من الحفاظ على أرواحكم » وربطوا هذه الرسالة بجنح الحمامة وأطلقوها وعندما قرا أهالي صور هذه الرسالة فقدوا الأمل لأنه لم يكن لديهم طعام « حذفت هنا فقرة تخص قصة الاسكندر الكبير » .

وأرسلوا بعض اعيان المدينة إلى الدوج قائد الفرنجة والبطرك ،

ورجوا أن تحفظ أرواحهم فاتفق على أن كل من يرغب بالبقاء يمكنه البقاء في المدينة ، وكل من يرغب في الخروج يمكنه الخروج مع عائلته إلى حيث شاء ، بأمان ، عندها فتحت أبواب المدينة ودخل الفرنجة وتمركزوا فيها في شهر تموز (٩٢) ، وفي هذه الأثناء كان بلدوين (وجوسلين) وجاليران لا يزالون في السجن (٩٣) .

اطلاق سراح بلدوين وموت جاليران (٩٤)

أما البرسقي الذي سبق وروينا خبر انكساره فقد رأى حلما وهو في الموصل أن أحد عشر كلبا قد مزقوا جسمه إربا إربا وعندما استيقظ أخبر عن حلمه ، فحذروه بالألأ يذهب للصلاة في ذلك اليوم ، وأن يحتاط لأمره ، ولكنه رفض أن يتخلى عن صلاة الجماعة في يوم الجمعة في الجامع الكبير في ذلك اليوم ، وبينما كان يسير داخلا من باب المسجد في منتصف النهار متوجها إلى المسجد للصلاة كما هي عادة المسلمين ، إذا بأحد عشر رجلا من الاسماعيلية يحيطون به ويطعنونه بالمدى ويقتلونه (٩٥) ، وقد خلفه في حكم الموصل وأقور ابنه الذي كان يدعى البرسقي أيضا ، وتجمع الفرنجة : الملك بلدوين وصنجيل صاحب طرابلس وجوسلين كونت الرها والتحق بهم أحد المسلمين المنفيين المدعو ديبس صاحب الحلة والعراق ، وكان قد أتى إلى أنطاكية وانضم إلى جانب الفرنجة ، وحاصر هؤلاء حلب بجيش عرمرم وهاجموها من جميع الجوانب مدة تسعة أشهر ، وقد أصبح الأهالي في كرب عظيم بسبب المجاعة ، وأكلوا الحوم الحيوانات القذرة ، وبعد تسعة أشهر عندما أصبحوا على وشك الاستسلام اتتهم رسالة من البرسقي حاكم أقور أنه قادم لنجدتهم ، واقترح ديبس أن يعطى جيشا يذهب على رأسه ويمنع البرسقي أو يعيقه من عبور الفرات حتى يتمكنوا من فتح المدينة ، وقد كان الفرنجة عنيدين فلم يأبهوا لنصيحته وعبر البرسقي الفرات ودخل حلب ليلا بمنتهى الجراة ، وفي الصباح فتح أهالي حلب أبواب المدينة وزحفوا وعلى رأسهم البرسقي ، وهاجموا الفرنجة الذين تركوا حصار المدينة وعسكروا على قلعة الجوشن ، وبعد عشرة أيام جلوا عن المنطقة

واتجهوا إلى انطاكية ، فطاردهم البرسقي حتى الأثارب ، وقد قام بضرب المتخلفين من الجيش ، ونهب الأمتعة ثم رجع إلى حلب وقد انتابه السرور العظيم .

ثم بدأ البرسقي حصار عزاز ، وركب الآلات لضرب الأسوار ليلا ونهارا ، وقد حفرت الأنفاق تحت الأسوار حتى يدب الفزع في قلوب الحامية ، وعندما سمع الفرنجة في انطاكية تلك الأخبار تجمعوا تحت قيادة بلدوين وجوسلين ، ولكنهم كانوا يخشون التقدم لانقاذ المدينة لأن عدد التركمان كان عظيما ، وقد وقعت الحملة في ارتباك عظيم فلم يستطع احد أن يدخل أو يخرج ، ولكن رجلا واحدا تبرع بالمخاطرة بنقل أخبار الوضع السيء إلى الملك ، وقد وعده الأهالي بمكافأة سخية إن هو رجع إليهم سالما ، فامتطى حصانا قويا ، وأخذ سيفا في يده وحمامة على صدره ، وخرج من البوابة كالبرق واجتاز جماعة جماعة من جماعات الأعداء الذين كانوا يراقبون البوابة وقفز فوق الخندق الذي حفر حول المكان ، وعبر إلى الضفة الأخرى ، وقفز الأعداء عليه من كل حذب وصوب ولكنهم لم يستطيعوا إيقافه ، فوصل إلى انطاكية وسلم الرسالة للملك ، فبدأ الفرنجة في الاستعداد لاغاثة أعزاز وهم يعتمدون على الرب ، وأرسلوا رسالة بواسطة حمامة يقولون فيها : « سوف نغيثكم بعد بضعة أيام كونوا أقوياء ولا تهنوا وتضعفوا » ونزلت الحمامة في معسكر الأتراك الذين كتبوا رسالة بمعنى معاكس تحمل اسم جوسلين وهي تقول : « لا أمل يرجى منا إن الملك مشغول بمحاربة المصريين الذين يحاصرونه ، أنقذوا أرواحكم وسلموا الحصن » ، وعندما قرأ أفراد الحامية هذه الرسالة انقسموا في الرأي ، وقالوا : « سوف نصمد ونتحمل لئلا يحدث لنا ما حدث لحمامة صور ، إذ ربما كانت هذه الرسالة مزورة ، فلنسبق أقوياء ولنحافظ على صمودنا أكبر مدة نستطيعها ، دعنا نموت ولا نستسلم » ، ورأى الأتراك أن حيلتهم قد أخفقت فأرسلوا بعض أمتعتهم إلى حلب لانقاذها من الفرنجة وأرسلوا الجواسيس إلى انطاكية ليعرفوا متى يتحرك الفرنجة ، وبعد بضعة أيام جاءت الأخبار أن الفرنجة بدأوا

بالتحرك ، فأعاد الأتراك كل ما كان لديهم من أدوات إلى حلب وأحرقوا آلات الحصار ، ولم يبق إلا الرجال المحاربون ، واختزن الفرنجة أمتعتهم في كلز وتركوا التلة وتمركزوا في السهل فوق كلز ، وعندما رأى الأتراك الفرنجة بدأوا يتحركون هنا وهناك وأصبحوا على يسارهم ، ومر الفرنجة الذين كانوا قليلي العدد بين التركمان دون قتال ، وعسكروا حيث كان الأتراك معسكرين ، ورأى الأتراك قلة عدد الفرنجة فارتفعت معنوياتهم وناقشوا القضية بهذا الشكل . إذا توقفوا في مكانهم فإننا سوف نحيط بهم ونقطع عنهم المؤن فيموتون جوعا ، وإذا هربوا فذلك علامة ضعفهم ولسوف نطاردهم ، أما الفرنجة فأدخلوا عددا كبيرا من الرجال إلى داخل القلعة ، وأعطوهم التعليمات التالية : « نحن متوجهون لفترة قصيرة غربا حيث ترتاح خيولنا ونحصل على الماء والغذاء (لم يكن أي شيء من هذا في أعزاز) فإذا طاردنا رجال العدو راقبوهم فعندما يخرجون من مكانهم ويصبحون كتلة واحدة خلفنا عندها ارفعوا شارات الدخان فوق القلعة ، وعندها تتم مشيئة الرب » ، وتحرك الفرنجة عند الفجر في طريق أنطاكية ، وعندما تبعهم الأتراك تظاهروا بالهرب ، وتشجع الأتراك فأظهر جميع الرجال الذين كانوا في الكمان أنفسهم ، وطاردوا الفرنجة بكل عزم ، وظهرت علامة الدخان فوق القلعة ، فأصدر الملك الأمر ونفذت الأبواق وجلبت الأعلام الملكية إلى المؤخرة وكان الرب غاضبا على الأتراك الذين هربوا وتركوا خلفهم ألفي قتيل ، ولم ينج إلا البرسقي وبعض مرافقيه الذين طوردوا حتى حلب ، ثم عاد إلى الموصل ومات في الرحبة على الفرات (٩٦) .

وأرسل الملك بلدوين وأحضر من أوروبا أمن بوهموند الأول صاحب أنطاكية (الذي رجع إلى بلاده بعد أن أطلق سراحه من أسر الدانشمند) وقد خطبه لابنته وجعله حاكما لأنطاكية وبعد هذا أحضر شابا آخر من عائلة الكونت فولك وخطبه لابنته الأخرى (٩٧) وأعلنه ملكا على بيت المقدس أثناء حياته ، أما طغتكين صاحب دمشق وبيانياس فقد رأى أنه لا يستطيع الاحتفاظ ببيانياس ، لأنها

محاطة بأراضي الفرنجة ، وهكذا أعطاهما لبهرام ، الاسماعيلي فقبلها هذا ، وجمع خمسمائة رجل وأرسل بعض الهدايا لملك الفرنجة وقدم له ولأته .

أما أبناء رافين الأرمني أسياذ كيليكية فقد قاوموا غازي بن دانشمند ، وبدأ رجالهم بالتهب في أراضيه ، فبدأ غازي وهو من أقوى الأمراء في مهاجمة أراضيهم واستعد بوهيموند صاحب انطاكية الذي كان متضايقا منهم أيضا ، للهجوم على كيليكية ، وعندما بدأ بوهيموند بغزو كيليكية ، قام غازي بالهجوم عليها من الجانب الآخر ، وقد تقابلت جيوش الفرنجة مع جيوش التركمان في الحال ، وكانت مقاصدها واحدة ، وهي تخريب تلك البلاد ، وأحاط التركمان بجيش بوهيموند وقضوا عليه ، ولم ينج منهم أحد ، وقتل بوهيموند الشاب النبيل ، فأخذوا رأسه وسلخوه وأزالوا الشعر الرقيق عنه وأرسلوا جلد رأسه مع أشياء أخرى لطيفة : دروع ورماح فرنجية ، ومهاميز للخيل أرسلوها جميعا للسلطان في أصفهان كهدايا النصر ، هكذا قضى الأميران الواحد على الآخر ، وأطلق سراح الأرمن ، ومن الغريب أن نذكر أن دانشمند أبو غازي قضى على جيش بوهيموند الأكبر وحطمه ، وهو أبو بوهيموند هذا وأخذه أسيرا ، بينما ابنه غازي قضى على جيش بوهيموند هذا ، وقتل غازي الشاب بوهيموند الشاب .

وفي عام ١٤٤٢ (١١٣١ م) مات السلطان السجلوقي في أصفهان ، وحدثت زلزلة قسوية سببت الكثير من الوفيات في خراسان ، وقد أنعم خليفة بغداد على غازي بن دانشمند ، وهو صاحب كبدوكية وملاطية بالسلطنة ، وقد كان أقوى أمراء الأتراك في تلك الديار .

وفي هذا العام جمع جوسلين صاحب الرها الذي كان قد طعن في السن ولم يتوقف عن القتال ، جمع جيشا لتدمير قلعة تدعى تل أعرن (٩٨) بين حلب ومنبج حيث كان يعيش بعض اللصوص الذين عاثوا في الأرض فسادا باستمراره وقد حفر الخنادق حولها ليحدث

ثغرة في الاسوار ، لكن انهيار الثغرة طمره عندما نزل ليرى الثغرات بنفسه ، وعندما أخرجوه من تحت الانقاض كان في حالة سيئة جدا يكاد يموت فقد تحطم جسمه فحملوه إلى تل باشر حيث بقي وهو مريض هناك ، وفي اثناء ذلك جمع غازي جيشا للهجوم على اراضي الأرمن أبناء (رافين) ، وعندما سمع جوسلين هذا الخبر أمر بجمع جيش ، وحمل على نقالة وتقدم لمقابلة غازي الذي رحل إلى بلاده عند سماعه هذا الخبر ، وبعد أن وصل جوسلين إلى دلوک توفي هناك ودفن في الكنيسة هناك ، وقد حكم بعده ابنه جوسلين الشاب الذي كانت تعوزه المعرفة والفهم ، وفي هذه السنة أيضًا مات بلدوين ملك بيت المقدس وحكم بعده صهره الأمير فولك أوف أنجو ، وكما ذكرنا من قبل فقد كان هذا الشاب يتمتع بسلطة الملك اثناء حياة عمه ابي زوجته ، واما في انطاكية فبعد موت بوهيموند بن بوهيموند حكم بيتابين الذي ذكرنا أن جيشه قد تحطم في الأناضول ، وعاد إلى بلاده .

وفي الشرق بعد موت البرسقي الأصغر في الرحبة عين السلطان العظيم عام ١٤٤٣ (الصحيح ١١٢٧) زنكي بن اق سنقر حاكما في الشرق. وكان اق سنقر أحد رفقاء بوزان الذي ذكر قبل مجيء الفرنجة ، وقد قتلهما تتش وهو تاج الملك ، وكان السلطان في بغداد هو مسعود ابن أخي سنجر شاه العظيم ، وهو ابن ابي الفتح ملكشاه الذي دخل إلى سورية في ايام فيلارتوس الدمشقي وعين يحيى سيان حاكما على انطاكية وبوزان حاكما على الرها ، وطغتكين على دمشق ، وقد ولد سنجر شاه لابي الفتح من الملكة العظيمة في سنجار ، وهكذا حصل اسمه ، وفي هذه الأثناء كان مسعود ابن أخي سنجر شاه يحكم اراضي اصفهان وخراسان والعراق وبغداد وكل البلاد الواقعة في الجنوب الشرقي ، وقد تبعت له اراضي اقليم اقور في الشمال الغربي أيضا ، وفي الموصل كانت السلطة بيده أيضا ، وكان بها حاكم يدعى اتابك ، وهذا الاسم أطلقه عليه التركمان ، وقد حكم كل منطقة مابين النهرين والشمال وحلب وفينيقية ، وفي الموصل كان هناك صلاح الدين (٩٩) المشهور وكذلك ناصر الدين وزين الدين

علي ، وهم تركمان حصلوا على الحظوة لدى السلطان ، وعندما مات البرسقي تقلدوا جميع السلطة في الشرق وحرصوا السلطان على تعيين زنكي بن أقي سنقر حاكما (وهو عماد الدين) ونفذوا هذا الأمر ، ثم جعل زنكي حاكما على أقور ، وجميع ما بين النهرين وسورية وفينيقية ، وقد اعطاه ولدي السلطان مسعود الشهابين ليكونا سيدين على المنطقة بينما احتفظ زنكي لنفسه بمنصب الوصي والحامي، وفي هذا الوقت مات مسعود صاحب أصفهان وقد خلفه ابنه سليمان شاه في همذان (١٠٠) .

في عام ١٤٤٣ زحف زنكي إلى جوار الرها ، وحاصر قلعة واقعة في شرق المدينة التي كان الفرنجة قد انتزعوها من شخص عربي يدعى مانع بن عطير ، واحتل زنكي قلعة شان (١٠١) ثم زحف واقترب من الرها ، وأرسل رسولا لأهالي المدينة قائلا إنه لا يريد الحرب مع الفرنجة بل يبغى السلم معهم ، فأرسلوا له الهدايا من طعام المدينة وشرابها ، وهكذا مر بسلام إلى حلب .

وحكم تاج الملك دمشق بعد وفاة والده طغتكين ، وبعد زمن قتله الاسماعيلية ، ولم يتفق أبناءه وأخوته الباقون ، فاستولى أحد القادة الذين كانوا مع تاج الملك على دمشق وهو أنر باسم أحد أبنائه ، واستولى ابن آخر على بعلبك ، وجمع زنكي جيشا وحاصر به بعلبك ونصب الات الحصار التي خربت تلك الابنية الرائعة ليلا ونهارا ، حتى أنه كان يرمي عليها كل يوم الف حجر ضخم ، ولهذا سلمت المدينة بسبب ما أصابها من كرب ، وهكذا استولى زنكي على بعلبك وبدأ القتال باستمرار ضد دمشق .

وعندما رأى أنر صاحب دمشق أن زنكي كان قويا يمكن أن يتغلب عليه بسبب ضعف جيشه وافتقاره إلى القوة طلب العون من ملك بيت المقدس ورشاه ليأتي لمساعدته ، وجمع ملك بيت المقدس جيشا وتقدم حتى أصبح قريبا من جيش زنكي وبحركة فنية بارعة انسحب زنكي من أمامه كما لو كان هاربا حتى توغل ملك بيت المقدس في البلاد ، وبعدها انعطف عليه زنكي بعنف وشراسة تسببت

في هزيمة الملك وهرب جيشه ، فبدأ التركمان بذبحهم بالسيوف ، ولكن ملك بيت المقدس هرب مع بعض رجاله إلى حصن الأكراد في أراضي طرابلس ، واختبأ هناك مع الرجال الذين هربوا معه ، وحاصر زنكي هذا الحصن وضيق على الحامية ، حتى أنهم أكلوا الخيول والحمير دون ملح ، واستغاث ملك بيت المقدس ببتساين صاحب أنطاكية وجوسلين الأصغر صاحب الرها ليأتيا لاغاثنه ، وقد قاسى الملك ورفقاؤه وهم ينتظرون جمع الجيش ومجيء النجدة ، وعندما سمع زنكي بالهرج والمرج ، وتجمع الفرنجة وإمكانية مجيئهم ، وعما يعانيه الملك أرسل له الأطعمة الطيبة اللذيذة لاسترضائه وعمل معه اتفاقا وعهدا وميثاقا مشفوعا بأغلاظ الأيمان ، ثم سار زنكي في حال سبيله (١٠٢) ، وسرعان ما وصل الفرنجة وأرادوا أن يطاردوا زنكي ، ولكن الملك لم يسمح بذلك بسبب ميثاقه وقسمه ، وقويت شوكة زنكي واستمر في حرب دمشق بعناد ، وأخذ أراضيها واستولى على تدمر في الصحراء .

وبعد إحلال السلم مع الملك لم يعد زنكي يحارب الفرنجة ، بل كان كل همه محاربة المسلمين ، وأخذ أراضيهم ، وإخضاعهم لسلطته ، وكان هناك قلعة قرب حلب تدعى الأثارب ، وقلعة أخرى تدعى هادانا (زردنا) وهي تحت حكم أحد زعماء الفرنجة ، الذي جمع جيشا وأخذ في تخريب الأراضي في حلب ، وأخذ كثيرا من الأسرى ، ثم رحل ، وعندما سمع زنكي بهذه الأخبار ، أخذ جيشه وأحرق هذه الأماكن ، واستولى الذعر على الأهالي ، فطلبوا من زنكي أن يقسم بالحفاظ على أرواحهم ، فأقسم ولكن كانت نيته الغش ، فقال بأنه سيأخذهم إلى بوابة أنطاكية ، وعندما فتحوا الأبواب ، أخذهم جميعا رجالا ونساء وأولادا إلى حلب ، لكن إلى باب يدعى باب أنطاكية في حلب ، وبذلك حافظ على قسمه ، لكنه ذبح جميع الرجال بالسيوف ، وأما النساء والأطفال فقد جعل الأولاد عبيدا والبنات جوارى .

وعندما مات غازي بن دانشمند (١٠٣) حكم ابنه محمد بعده ،

وأصبح قويا ، لكنه كان رهيبا ، وزاد ثقل نيره على ممتلكاته في كبدوكية ، وخصوصا على أهالي ملاطية ، وقد أرهقهم بالضرائب وخصوصا الجزية ، وعاقبه الرب بأن أصيب بمرض خبيث ، ومات ، وكان لغازي ولدان أخران هما (دولة) والآخر (يعقوب) وعندما مات محمد استلم الحكم (دولة) بعده (١٠٤) .

وفي عام ١٤٤٦ (التاريخ الصحيح هو ١١٢٧ م) بدت الحماسة في الظهور عند الامبراطور جون في القسطنطينية لغزو سورية فجمع جيشا يقدر بأربعمائة الف رجل من الأغريق والفرنجة والألمان والهنغاريين واستعد للزحف على طول ساحل كيليكية ، حتى يظل بجانب البحر وبذلك ينقل أمتعة في السفن التي تستطيع أن تمده بالمؤن والعلف للخيول بانتظام ، وكان حاكم كيليكية في ذلك الوقت (ليو) (ليون بن رافين) الأرمني ، وهو خال جوسلين الأصغر صاحب الرها ، وقد تحسنت أحوال (ليو) هذا وأصبح قويا ، وعندما قتل بوهيموند في أراضيه زادت سلطته على الفرنجة وعلى الأراضي الساحلية المدعوة « تاغر (١٠٥) » واستولى على طرسوس ، وسبب كثيرا من الخسائر للفرنجة ، وعندما حكم بيتابين في أنطاكية نمت وزادت هذه العداوة ، وقد استمر (ليو) هذا في غزو أراضي الأغريق ، وسبب هذا الانزعاج للامبراطور ، وفي الوقت الذي حدث فيه غزوة الامبراطور ، كان بيتابين قد جمع جيشا ، وبدأ بنهب أراضي كيليكية ، واستعد (ليو) للقتال ، ولكنه فوجئ بكمين فرنجي فأسر وأخذ إلى أنطاكية حيث أودع السجن ، وبينما كان (ليو) أسيرا وصل الامبراطور إلى أسواب كيليكية ، وأرسل رسالة إلى الفرنجة طلب بها من كل من يخضع له أن يأتي ويقدم له فروض الولاء والطاعة ، وعندها أتى جوسلين وبيتابين لتقديم فروض الطاعة وقابلاه فيما وراء طرسوس ، واستقبلهم الامبراطور بسرور ثم رجعا كل إلى مدينته ، واستولى الامبراطور على طرسوس والمصيصة وأذنة واستولى على عين زربة بعد حصارها ، ثم تقدم إلى سهل أنطاكية وانتشر جيشه في السهول والقرى ، وأنزل أضرارا جسيمة بالقرى المسيحية ، وعندها أتى

حاكما انطاكية والرها مرة ثانية لتقديم فروض الطاعة للإمبراطور ، وقد رغب أن يضع الأمتعة التابعة لجيشه وأمواله في انطاكية بمثابة عهد منه وتعهد بأنه تغلب على أراضي المسلمين فسوف يعطي هذه الأراضي لصاحب انطاكية ، لكن صاحب انطاكية لم يكن راضيا عن هذا الاجراء .

وزحف الامبراطور على رأس جيش عرमوم ومعه أموال كثيرة ورافقه أبناؤه الأربعة وأخوته وأصهاره وجميع رجال بلاطه الامبراطوري ، وقد أقسم يمينا بالأى يرجع مع قياصرته وأغسطسه وبطارقته وبقية نبلائه دون أن يحرز نصرا مبينا ، وهذا مادبره الامبراطور ولكن الرب يعطي نصره وتأييده لمن يشاء ، فعندما رجع بيتابين إلى أنطاكية أطلق سراح (ليو) الذي رجع إلى بلاده وانضم للإمبراطور بمثابة رديف ، ولكن الامبراطور سجنه واحتل أراضيه وأرسله إلى القسطنطينية مع أولاده وأهل بيته .

وبينما كان الامبراطور في سهل أنطاكية والفرنجة يخدمونه إذ لم يكونوا مستقيمين بالتعامل معه ، أتت أخبار تستحق الرثاء من أذنه التي حلت بها نوازل قاسية ، فقد كانت أذنه مليئة بالمسيحيين اليعاقبة ومعهم مطرانهم يحيى يسوع بن أريك الرهاوي ، وعندما استولى عليها الامبراطور ترك فيها قسوة لحمايتها ، وانتقل الى أنطاكية وقد فرح أهلها لأنهم أصبحوا تحت حكم الاغريق الذين خلصوهم من الضرائب الباهظة التي فرضها الفرنجة عليهم ، وبينما كانوا هائئين وناعمي البال في أحد أيام الأحد اذا بجيش تركماني (١٠٦) ينقض عليهم ويحيط بهم إحاطة الخندق بالأسوار ، وبدأ هذا الجيش بالهجوم عليهم كالريح العاتية ، ونصب جنده السلالم على الأسوار وتسلقوا عليها ، وعندما كانت حامية السور تدفعهم من جانب كانوا يظهرون في جانب آخر ، ولقد ضعفت الحامية بسبب السهام التي كانت تطلق عليها من جميع الاتجاهات والحجارة ، والهجوم المركز المحيط بها ، وصمدت الحامية من الفجر حتى منتصف

النهار ، وأشاح الرب وجهه عنهم وتركوا لتسللهم أيدي الأعداء بطريقة غريبة عجيبة لا يصدقها أي شخص يسمعا ، اذ دفع أحد الأتراك سلما على السور وبدأ بالتسلق عليه ولكن عندما وصل الى نهاية السلم كان السور لا يزال أعلى منه . فتمسك بحجر بارز في السور ووقف عليه واذا بواحد من رجال الحامية فوقه يطعنه برمح ليرميه على الأرض وتمسك التركماني بالرمح فسحب الجندي الذي على السور الرمح بشدة ليخلص الرمح من يد التركماني وبهذه الطريقة سحب التركماني الى الشرفات في أعلى السور ، وسل التركماني سيفه وهجم على الجندي الذي انهارت قواه وسقط من أعلى السور ، عندها اعتري الجنود الآخرين الخوف والفرع فهربوا من التركي ، وتركوا أمكنتهم وتشجع التركمان فتسلقوا وتبعوا رائدهم ، واحتلوا السور ، وفي لحظة من الزمن أصبح السور يعج بالتركمان الذين نزلوا الى المدينة وفتحوا ابوابها ، وأنزلوا بقية الجيش التركي ، ولقد كان الرب غاضبا على أنفه وسكانها ، وجمع التركمان جميع الرجال وأمرهم بالركوع ثم قطعوا رؤوسهم بالسيوف ، وقد نهبوا البيوت والأديرة والكنائس ، وجمعوا غنائم لاتعد ولا تحصى ، وأخذوا أسرى من الأولاد والبنات بشكل مجاميع كاملة ، وأخذوا المطران والكهنة والشمامسة الصغار وربطوهم بالحبال وجروهم الى الأسر المهين ، ودمروا المدينة وجعلوها خرابا يبابا ، ثم رجعوا الى بلادهم ، وعندما وصلت الأخبار للامبراطور أرسل جيشا لمطاردة التركمان ، ولكن لم يستطع هذا الجيش أن يتركهم لأنهم كانوا قد ابتعدوا مسيرة سبعة أيام ، وبيع الأسرى في أماكن متعددة خصوصا في ملاطية ، وأما الذين نجوا فقد رجعوا الى مدينتهم وقد اهتم الامبراطور بأمرهم ووهبهم كل ما يحتاجونه لاقامة أودهم في هذه الحياة ، وجاء تدمير مدينة أنه وخرابها بعد خمسة أشهر مضي من بداية حملة الامبراطور ، وعندما حل الشتاء قضاه الامبراطور في كيليكية مع جيشه وقد كان هنالك كثير من المرضى وأعداد لاتحصى من الوفيات .

وفي نهاية شهر تشرين الأول وعندما كان الامبراطور في

كيليكية ، تجمع جمهور كبير في بسمسياط واتجهوا الى الرها لأنه في مثل هذه الحالات لم يكن التحرك مأمونا الا بشكل جماعات وذلك بسبب الكمانن التي كان ينصبها العدو على الطرق ، وكان معهم جملة من العلف والنبيد وجميع ضروريات الحياة ورجال وحيوانات لاتعد ولاتحصى ، ويصحبهم فرسان ومشاة من الفرنجة ، وعندما عبروا نهر الفرات وأصبحوا على بعد بضعة أميال من الرها فاجأتهم قوى تمرتاش بن ايلغازي صاحب ماردين وميافارقين المؤلففة من عشرة الاف فارس عند غروب الشمس في ٢٩ تشرين الاول عام ١٤٤٧ وتحاربوا طيلة الليل ، وظل القتال مستمرا من فجر ذلك اليوم حتى الظهر بشكل مرير ، وقد توجهت عدالة الرب ضد القافلة قرب قرية تدعى باتال على طريق الرها ، وأطبق عليهم التركمان وأعملوا بهم السيف وقتلوا منهم عددا لا يحصى وأسروا الالوف ، وغنموا غنائم هائلة من الخيول والبغال والحمير وأخذوا الأسرى المصنفدين بالأغلال وأوقفوهم أمام ابواب الرها صفوفوا صفوفوا ، وخاطبوا أهالي الرها قائلين : أيها الحمقى ، ماذا تأملون سلموا المدينة ، ونحن سوف نطلق سراح أسراكم ، ولم يحر أهالي الرها أي جواب وهكذا انسحب الجيش لأنه لم يكن لديه أي آلات حصار .

وعندما انتهى الشتاء وأتى الربيع (١٠٧) استعد الامبراطور لدخول سورية وارسل إلى زعماء الفرنجة حسب الاتفاقية ومر بمرءش وعين تاب وتل باشر ثم أتى الى منبج ، وقد قاده جوسلين لحصار حصن بزاعه بين منبج وحلب فاستولى عليه ونهبه ، ثم سلمه الى جوسلين وفي عام ١٤٤٨ (١٤٤٩) (١٠٨) زحفوا من بزاعه وموا من حلب ، وبدوا مثل أسراب الجراد جيشا لا يعد ولا يحصى ، وقد ارتجفت قلوب أهالي حلب حين ظنوا ان الامبراطور قد حضر ليهاجمهم ، وعلموا أنه اذا فعل ذلك فالمدينة سوف تسقط حتما ، ولكن الفرنجة الماكرين الغشاشين لم يكونوا راغبين بانتصار سساحق للامبراطور ، فكانوا يقلبسون له الحقائق ، ويتظاهرون بالتفاني في حبه والولاء له ، ولكن كذبا ورياء

فمنصحوه بالأى يهاجم حلب بل أن يقدم على عمل انتحاري بحصار (شيزر) ، وهى قلعة حصينة واقعة على قمة تلة عالية ، ويجري نهر أسفل منها ، وكان أصحابها من نبلاء العرب يدعون (بنو منقذ) وهم أقارب صاحب قلعة جعبر وهو الذى الجأ بلدوين كما سبق وأشرنا عندما أطلق سراحه من الموصل ، وكانوا كرماء الأصل طبيعتهم حب الخير والمصالحة لا ينوون لأحد الشر ، وكان زنكي فى حلب وابتهج كثيرا عندما رأى خطط الاغريق والفرنجة السينة ، فأدرك فوراً أن أغراض الفرنجة تتضارب مع أغراض الاغريق ، وبينما كانوا يحاصرون شيزر تصرف زنكي بحكمة وفضل أن يتجنب مصادمتهم فى الوقت الحاضر ، فأخذ يقوى رجاله ، ويحمي حدوده ، وتقدم قليلاً بمحاذاة المعسكر الاغريقي ، وهاجم الامبراطور قلعة شيزر دون جدوى ، وبدأت المجاعة تتغلغل فى صفوف الاغريق لأنهم كانوا يؤلفون جيشاً عظيماً يحتاج لمؤن كثيرة ، وقد منع زنكي عنهم المؤن بحكمة مدوية ، وعندما اشتدت وطأة المجاعة ، ولم تكن هناك أى حيلة للاستيلاء على الحصن بالقوة ، أدرك الامبراطور ، خيانة الفرنجة فى اضاعة وقته فى حصار هذا الحصن ، وأرسلت حامية الحصن رسلاً الى الامبراطور قالوا لها « ان الفرنجة قد ضللك ، وقد أتوا بك لتحصن هذا المكان مع اننا لم نسمح لهم بسبب أى ضرر للمسيحيين ، وأرسلوا له الهدايا وأواني ذهبية وفضية مختصة بالاسر المقدس وصلبان من الذهب حصلوا عليها من انتصاراتهم على الأباطرة ، واحتفظوا بها منذ زمن آبائهم ، وغادر الامبراطور شيزر وذهب الى انطاكية ، وبعد مسيرة مرهقة وصل الى عين زربة ، ولم ينجز أى عمل فى ذلك الصيف .

وتوجه زنكي الى بزاعه واستولى عليها وقتل جميع الفرنجة فيها وكان الأسرى الذين أخذهم الفرنجة منها عند استيلائهم عليها قد وضعوا فى اعزاز ، وكانوا يأخذونهم كل يوم الى حقول القمح ليأكلوا لأن الطعام كان نادراً ، فوضع زنكي كمينا قتل جميع حراس أولئك الأسرى وأطلق سراحهم وأخذهم الى بزاعه وكان الامبراطور

في كيليكية ، وقد مات ابنه الأكبر فحنطوه وأرسلوه الى العاصمة ، وسرعان مات ابن آخر من أبنائه فحنط ايضا وأرسل الى العاصمة ، وتأثر الامبراطور كثيرا وزاد حزنه فرجع الى القسطنطينية خائبا دون ان يستولي على بيت واحد من بيوت المسلمين ، او ان يربح معركة واحدة فقط .

وفي بداية السنة التالية استعد الامبراطور جون ثانية ، واتى الى طرسوس ومعه جيش كبير ، واستدعى زعماء الفرنجة ووبخهم على ما فعلوا به في السنة الماضية ، ورتب مصاهرة وزواجا حتى يتفقوا معه بموجب حب حقيقي ، وبينما كان يقوم بهذه الترتيبات ذهب الى الصيد في يوم عطلة وظهر له غزال فوق القوس نحوه بعد ان وضع به سهما ، ولكن رأس السهم جرح يده اليسرى فالتهبت ، وحدث تورم في زراعه وبعد بضعة أيام مات ، وكان معه ابنه الأصغر مانويل الذي كان قد أعلن امبراطورا اثناء حياة والده ، وحنطه الجيش وأخذه مع ابنه الى القسطنطينية وأصابهم كرب وحزن شديد ، وفي تلك الاثناء حدث زلزال شديد فتهدمت عدة مدن وخاصة في كيليكية وسورية ، وقد اختفت قلعة الأثارب الحصينة ، وغارت في الأرض كأنها لم تكن ، ولكن القدس نجت وفي هذه الاثناء توفي بلدوين وخلفه ابنه .

وبدا زنكي الذي استراح وأمن جانب الفرنجة والأمراء المسيحيين ، بالهجوم على أعدائه من التركمان ، فعبر الفرات وهاجم أبناء ارتق وتمرتاش وأبناء داود ، وأخذ منهم أسرى واحتل دارا وتل موزن وجمالين وجميع شبختان ، وأخذ حانبي وأرقين والحميمة ، وفي شدتهم استغاث أبناء ارتق بجوسلين صاحب الرها ، واعطوه مقابل مساعدته حصن بابولا في اراضي كركر ، فاستعد لمساعدتهم ضد زنكي ، وقد كان نكيا وماكرا فعقد السلم مع الأراقة الذين كانوا راغبين في هذا السلم لأنهم كانوا يعلمون انه ليس باستطاعة جوسلين مساعدتهم كما يجب ، وشعر زنكي بالغضب من جوسلين ، ولم يوفر اي محاولة او وسيلة

لاحتلال الرها ، وكان يرسل الجواسيس باستمرار للتأكد من ان المدينة كانت خالية من الجند ، وكان في حران زعيم مسلم يدعى فضل الله بن جعفر ، وكان يكره رجال الرها ، وكان الجواسيس يأتون اليه وهو يوجههم وفي ذلك الوقت كان زنكي يحاصر امد .
وجمع جوسلين جيوشه وذهب للاغارة على المقاطعات القائمة على الفرات قرب بالس والرقه ، وبإسار رئيس حران الى اخبار زنكي ، وكان في امد : ان الرها باتت خالية من الجنود ولذلك ارسل زنكي على الفور جنودا مدربين تحت قيادة صلاح الدين (١٠٩) الشجاع ، واوعز اليهم ان يعملوا جهدهم لاحتلال الرها ، وأخذها على حين غرة ، واذا لم يستطيعوا فتحها عليهم ان يهاجموها ويختبروا مدى قدرتها ، فاذا وجدوا الدفاع قويا وفعالاً فعليهم ان يعودوا ، والا فعليهم ان يحدقوا بها ويستدعونه .

وما ان بدأت الحملة سيرها ، حتى سار زنكي على اثرها وقد زحفت الحملة بسرعة طيلة ذلك اليوم واللييلة التالية ، ولو انها وصلت في الظلام لكان باستطاعتها الاستيلاء على المدينة لان سكان المدينة لم يكونوا متوقعين ابدا مثل هذا الهجوم ، ولكن حدث ان هبط مطر غزير ، وكان الليل شديد الظلام ، وعندما اقتربت الحملة من المدينة ضلت الطريق ، وعند الفجر وجدت نفسها قد سارت في طريق حران ، وعندما رجعت كان عنصر المباغته قد أصبح لا أمل منه ، فهاجمت المدينة عند الفجر في يوم الثلاثاء ٢٨ تشرين الثاني عام ١٤٥٥ ، ووصلت الى الهضاب المحيطة بها ثم قتلت بعض الرجال الذين كانوا بين الأسوار ، وعندما رأت ضعف المدينة أرسلت الى زنكي رسالة بواسطة الحمام الزاجل ليأتي حالا ، فوصل في فجر يوم الخميس على رأس جيش يفوق عدده عدد نجوم السماء ، ملا السهول حول المدينة وأحاط بها فرقة تلو فرقة ، ونصب خيامه حولها كخيام المتسولين ، وقد كان العسكر حريصين ان ينصبوا خيامهم امام المعقل الخارجية ، فقد نصب زنكي خيمته مقابل باب الساعات على التلة فوق كنيسة الاعتراف ، والى الشرق منه نصبت خيمة الملك العظيم ابن

السلطان ، والى الشمال كانت خيمة الايراني العاقل جمال الدين الوزير ، الذي كان مسؤولا عن جباية الضرائب وادارة الواردات من اراضي زنكي حيث عسكر على تلة المراقبين .

واما صلاح الدين العاقل العظيم القائد العام لجيش زنكي فقد نصب خيمته في الغرب مقابل باب النافورة على تلة المقبرة حيث يوجد ضريح مار أفرام ، وفوقه في أعلى وادي سليمان كان زين الدين علي كوجك صاحب إربيل وشهرزور مقابل حدائق بارصوما ، وفي شرقي باب كاساس كان الزعيم الكبير ديبس سيد الأراضي المنخفضة مقابل بابل ، وهو الذي كان قد التحق بالفرنجة فيما مضى من الزمان (١١٠) وشمال موقعه هذا وفي حديقة بوزان كان ابو علي صاحب زعفران وارقنين ، وفي الشمال الشرقي كان ابناء باقاسق وهم حكام سببارق على شواطئ الفرات ، وفي شرقي باب كاساس عسكر عين الدولة سيد شبختان وجنوب هذا عسكرت قبائل من الاكراد يليهم كثير من الرجالة والعرب ورجال من حلب ، وفي الغرب مقابل القلعة عسكر حسان صاحب منبج ونصب خيامه.

وكانت المدينة ضعيفة ، ولم يكن بها اي جند ، بل فيها الاسكافيون والذساجون ، وتجار الحرير والخياطون والكهنة والشمامسة فقط وكان بها ثلاثة اساقفة هم بابياس (١١١) من الفرنج وباسيلوس السرياني بن شومنا ، وهو من ابناء المدينة ، والارمني اهنانيوس ، وقد قاوموا بشراسة ، وقاتلوا قسدا استطاعتهم ، فنصب الأعداء آلات الحصار ، وكل قائد فعل ذلك في القسم الذي امامه ، وقد ضربوا السور بعنف ، وقد حفروا الأنفاق تحته في الجانب الشمالي تحت الجسر خارج باب الساعات ، ووصلوا الى أسس السور بينما كان القتال مستعرا في الخارج ومستعرا ، وقد حاول زنكي اضعافهم بارسال اقتراحات للإسليم - رفضوها - لأنه كان يرغب أن تسلم له المدينة استسلاما دون أن تدمر ويقتل الأهلون ، فأرسل لهم: انصتوا ايها الحمقى انكم ترون الا أمل لكم بانقاذ ارواحكم ، لماذا تنتظرون

وتأملون ، أشفقوا على انفسكم وبناتكم وزوجاتكم ومدينتكم حتى لايجل بها الخراب ، وتصيب خالية من السكان ، ولم يكن هنالك أحد من السكان يملك اي سلطة ، فكل واحد يفعل ما يريه ، وهكذا تركوا للخراب والنهاية المحزنة ، فقد أجابوا زنكي بوقاحة بالاهانات والسباب بشكل كله حماقات ليس لها مثيل ، وقد اقترح الاسقف السرياني بعد التشاور مع اسقف الفرنجة ان يكتبا زنكي ويطلبا منه هدية مؤقتة لزمان محدد حتى تأتيهم النجدة ، وقد بدت هذه الفكرة جيدة ، وهكذا استشار بعض الرجال العقلاء فكتبا الرسالة وقراها للشعب وكان الهدف من ارسال الرسالة هو تأجيل النتيجة الحاسمة حتى يلتقطوا أنفاسهم ، لأنهم فقدوا أملهم في الحياة ، وكانوا متعبين ومنهوكي القوى في العمل المرهق على السور الجديد أمام مقالع الحجارة ، وكانت النساء والبنات والأولاد قد أخذ منهم التعب كل مأخذ من حمل الحجارة التي ياقبها الأعداء ، بواسطة آلات الحصار تسقط عليهم من الخار ، ولم يكن هنالك نهاية للاضطرابات المحيطة بهم ، لذلك فكر الاسقفان أن يرتبوا هدية ليحصل أهل المدينة على بعض الراحة ، ويتأجل ولو الى فترة وجيزة الغضب الذي كان ينتظرهم ، وقد رأيا السور وقد هدم من جميع جوانبه بفعل آلات الحصار ، وفي المقلع الشمالي اتلفت أسس السور ووضعت في مكانها العوارض الخشبية وقطع الخشب بالنفط والزيت والكبريت حتى تحترق كالمشاعل عند اللزوم ، وبذلك يسقط السور ، وعند ذلك قام رجل جاهل ، وهو تاجر حديد يدعى حسنون ومد يده بمزق الرسالة ، فحدثت ضجة عظيمة وجلبة وفسدت هذه الخطة الحكيمة ، ومع أن زنكي كان قد قال: « اذا رغبتم في هنة فاننا سنهبكم ذلك فاذا اتتكم النجدة ، او لم تأتيكم عليكم أن تسلموا المدينة وتنفذوا أرواحكم » ، فهو لم يكن راغباً في اتلاف المدينة ، لكنه رأى الافائدة ولا جدوى من الاقتناع ، ولذلك كما قيل في الكتاب المقدس « لقد جعل الرب قلب فرعون قاسياً كيما يدمره » .

وأصدر زنكي الأوامر بإشعال النار تحت السور ، وهكذا أصبح
هدم السور أمرا محتوماً ومقضيا ونادى المنادون في المعسكرات
بحثون الجند أن يستعدوا للقتال وأن ينقضوا عندما يرون السور
يسقط على المدينة ويدخلوها من خلال الثلثة ، وقد سمح بنهب
المدينة لمدة ثلاثة أيام والتهمت النار الزيت والكبريت وتسربت
للعوارض الخشبية وصبوا الزيت عليها ، بينما هبت ريح شمالية
فدخل الدخان في أعين رجال الحامية في الأعلى ، وترنج السور
العظيم وسقط وكان الخندق الموقت غير كاف لصد التركمان ، فقد
ظهر بأنه قصير لأن الجزء الذي سقط وريدم كان أطول من الجزء
الذي بنوه وقاتلت الحامية في الثغرتين من الفجر حتى الساعة الثالثة
من مساء عيد العذراء (أم الرب) (٢٤ كانون الأول) ، وبعد أن
قتل الكثيرون اقتحم التركمان المدينة - لأن الرب كان غاضبا على
أهاليها - وبدأوا بالذبح بالسيوف ولم يوفروا أحدا ، وقتل في ذلك
اليوم حوالي ستة آلاف شخص.

وعندما دخل التركمان هرب النساء والأطفال والشباب إلى القلعة
العليا لينجوا من القتل ، وكان الباب مغلقا وذلك طبقا لتلك العادة
السيئة التي اتبعتها الفرنجة بالألا يفتح الباب إلا بناء على أمر من
الأسقف ، والألا ينفذ الأمر ما لم يري رجال الحامية الأسقف
بنفسه ، ولهذا فقد انسحق الحشد سحقا وذلك خوفا من القتل
والأسر ، فأخذوا يدوسون بعضهم ، وأنه لمنظر يستدعي الشفقة
منظر مفرع مخيف ، فقد أصبحوا كتلة واحدة مسحوقة مؤلفة من
حوالي خمسة آلاف شخص اختنقوا بهذا الشكل البأس ، واقتيد
حوالي عشرة آلاف ولد وبنت إلى الأسر ، وعندما وصل زنكي إلى
القلعة ورأى منظر أولئك المختنقين تأثر كثيرا وأمر بإيقاف
المذبحة ، وقد قتل الأسقف الفرنجي بضربة فأس وهو في طريقه إلى
القلعة ، وقتل كثير من الكهنة والشمامسة والرهبان.

وكان عندما وصل زنكي إلى بوابة القلعة تكلم مع الحامية

برفق ، وطلب منهم التسليم ووعدهم أن يوفر أرواحهم ، فخرج قسم منهم يطلبون الأمان للفرنجة الموجودين في القلعة ، وكان بينهم الكاهن بارصوما (الذي غضب عليه الرب) الاشماعيلي ، وكان قد تمكن بتأثير حديثه من جعل نفسه رجلا بارزا في القلعة ، وأقسم لهم زنكي قسما مغلظا أن يحفظ أرواحهم فسلموا بعد يومين من سقوط المدينة ، وفي اليوم التالي استعرض زنكي الأسرى في جميع المعسكرات ، فأختير بعضهم وأرسلوا الى الرق ، وأمر بوضع الحرس على الابواب لمنع أي شخص غريب من دخول المدينة، ورجع أهالي الرها الباقيون الى بيوتهم ، وأعطاهم زنكي كل ما يحتاجونه من الطعام وشجعهم وواساهم وهكذا استقروا في بيوتهم .

ولنعد الآن الى ما حل بأولئك الذين كانوا في القلعة عندما سلمت للأتراك ، وعندما هلك جمع غفير من النساء والأطفال بعد أن اختيروا للأسر ، وكان عددهم حوالي ألفين ، وقد قتل ستة آلاف أو أكثر بحد السيف أو الاختناق أمام القلعة ، وأطلق الحاكم سراح حوالي عشرة آلاف من الجنود ، أما أولئك الذين اختبأوا تحت الأرض أو في الحصنين فقد نجوا أيضا ، وعندما سقط الحصن الشمالي بعد أن وعدوا بالحفاظ على أرواحهم أحضر زنكي المطران باسيلوس الذي كان تحت الحفظ يحرسه أحد الجنود وبدأوا بإحضار الفرنجة الذين كانوا في الحصن مع نسائهم وأطفالهم ، وكذلك الكهنة والشمامسة وأحضروا معهم كثيرا من الذهب والأواني الفضية وما شاكل ذلك ، وقد التحق بهم الكثيرون لأن زنكي أقسم أن يأخذهم عبر نهر الفرات ، ويطلق سراحهم ويسمح لهم بالذهاب الى حيث شاؤوا ، ودخل القائد صلاح الدين الى القلعة وأخذ المطران من يده وقال : « نريد من قداستكم أن تقسموا على الصليب والانجيل أن تكونوا صادقين معنا ، وتخلصوا لنا ، لأنكم تعلمون جيدا أنكم تستحقون القتل لأنكم قساوتمون واحتقرتم نبينا ، ونحن مستعدون أن نعاملكم معاملة حسنة ونطلق سراح جميع الأسرى ، وأنتم تعلمون أنه منذ الزمن الذي استولم المسلمون به على هذه المدينة ، بقيت تحت سلطتهم منتهي سدا

ازدهرت خلالها وأصبحت مدينة كبرى ، ولكن اليوم بعد ان حكمها الفرنجة مدة خمسين عاما ، أتلفوها وخربوا اراضيها كما ترون ، وإن الحاكم هنا مستعد ان يعاملكم معاملة حسنة ، وهكذا عليكم ان تعيشوا بسلام وأن تلجأوا اليه، وأن تصلوا لاجله» (١١٠).

وخرج من القلعة جميع من كان فيها من رجال المدينة من السريان والأرمن ، وذهب كل منهم الى بيته ونهب التركمان كل ما كان يملكه الفرنجة من الذهب والفضة والأواني في الكنائس والكؤوس والطاسات والصلبان وكثيرا من الجواهر ، ثم جمعوا الكهنة والنبلاء والزعماء ونزعوا منهم كل ما يملكونه ، وأرسلوهم أسرى الى حلب ، انما الآخرون فقد اختاروا اصحاب الحرف وشغلوهم في حرفهم سخرة ، لكنهم عذبوا حوالي مئة شخص ، وبعضهم الآخر ذبحوهم بالسيوف ، وهكذا فقد أصبح كل شيء معطلا ، وبعدها دعا زنكي المطران الأعظم وحمله مسؤولية الاخلاص والصدق مع المسلمين ثم أعطى لرجال الرها بعض المواشي والثيران والعلف ثم عين التركماني زين الدين علي كوجك صاحب إربيل وشهرزور حاكما للرها ومعه سبعة زعماء آخرون ، وشكل حامية قوية للدفاع عن المدينة ، وبعد أربعة أيام من الحصار سار زنكي مارا بحران الى الرقة على الفرات ، وقد أفتدى اهالي الرها أسراهم فسأعيدوا الى المدينة ، وكان الحاكم زين الدين رجلا عادلا وأظهر لهم منتهى العطف.

وبعد أربعين يوما من سقوط الرها أرسل زنكي جيشه الى سروج ففر المسيحيون الى البيرة ، واحتل التركمان سروج ، ثم ساروا الى البيرة في اول الشهر القمري من شهر آذار عام ١٤٥٥ (١١٤٤ م) وحضر زنكي بنفسه ووضع الات الحصار حول المدينة ، وقام بهجوم ضار مركز ، وظل القتال دائرا دون انقطاع من يوم عيد الفصح (يوم الخميس حتى مساء يوم أحد - القيامة) في اليوم الرابع والعشرين ، وحطم التركمان السور الخارجي ، وفي هجوم تال احتلوا القلعة الخارجية ، وقد حدثت

ضجة عظيمة مزقت الإسكون في الأرض ، لكن الحامية كانت قوية وشجاعة فاستل أفرادها سيوفهم وقفزوا على التركان وردوهم على أعقابهم خائبين .

وحضر الى قلعة الروم وهي قلعة على الفرات على مسيرة يوم أو أقل من البيرة ، حضر أحد قادة الكونت (جوسلين) واسمه روبرت السمين ومعه قائد آخر يدعى روبرت ، وكان كل منهما محاربا عنيدا ومجربا ، وقد قدما ومعهما مؤنا وأسلحة وكل ما يحتاجونه ، وأبحرا في النهر ، وعندما اقتريا من القلعة قاما بعمل سخيف يدل على الحمق ، فقد نفخا في الأبواق ، وعندما سمع التركمان أصوات الأبواق ذعروا واندفعوا من جميع الجهات ، فعندما راوا أن القاربين قادمين لنجدة الحامية هاجموهما من كلتا الضفتين ، وأرسلوا قوارب ضدهما ، ولم تعلم الحامية بما كان يحدث وحل بها الخوف عند سماع نفخ الأبواق لأن أفرادها ظنوا أن هذا هجوما من قبل العدو ، وعندما اقترب القاربان من الضفة النهر لم يكن هناك من أحد يرمي حبلا أو يمد رحما لمساعدتهما وقفز من كان بهما واحدا تلو الآخر الى الماء وخرجوا بسرعة وهم في خوف شديد ، وبعضا منهم جرفه التيار وأمسكهم العدو وبعضهم الآخر غرق ، وقد انجرف القارب الذي به روبرت السمين الى القلعة ، ووصل الى منتصف معسكر العدو اذ لم يكن هناك من يوقفه ، وفقد الفرنجة الأمل ، وقفز بعضهم الى الماء ليموت غرقا ، بينما قتل التركمان كل من بقي داخل القارب ، ورمى روبرت السمين بنفسه الى الماء ، ومشى في الوحل حتى وصل الى قرية على الضفة الغربية ، ولما كان عاري القدمين وثقيل الحركة ، لم يستطع أن يذهب بعيدا فاخترأ في مخزن مليء بالتبن والقش ، واتى في ذلك اليوم بعض التركمان الى القرية لجلب التبن (١١١) فوجدوه في ذلك المخزن ، فقبضوا عليه وأرسلوه الى زنكي الذي أرسل به مع الأسرى الى حلب ، وأما روبرت الآخر ومعه بعض من نجو فقد وصلوا الى الحصن ، وفي أثناء القتال أصابه سهم في عينه فمات على الفور ، وقد دام حصار القلعة أربعين يوما .

وبينما كان الحصار على أشده أتى رسول رابكا على جمل وهو مسرع كالعاصفة ، وأفضى بنبا أن نصير الدين(١١٢)القائد الذي عينه زنكي في الموصل قد قتل وأن بلاد أقور قد ثارت وتمردت ، وهو قد ترك الموصل بسرعة ولا يدري ماذا حل بالمدينة ، وخاف زنكي لأنه فكر أن ابن السلطان قد نصب نفسه ملكا واستولى على كل أقاليمه ، وكان يخشى من الجيش الذي معه فاستدعى في الحال زين الدين صاحب أربيل وحاكم الرها وأرسله بسرعة الى الموصل ليحل محل نصير الدين المقتول. وترك تلك الليلة زنكي البيرة وذهب الى حلب اذ كان يخشى اندلاع عصيان هناك. وفي الصباح أفاق أهالي البيرة فلم يجدوا أي أثر للمعسكر الذي كان يحاصره ، ولم يجدوا أثرا لأي رجل أو خيمة ، وقد رأوا المعجزة وهم في أعلى الحصن ، لقد شهدوا لهب الحرب قد انطفأ والخطر قد زال عنهم ، وهكذا نجت البيرة من زنكي بعد حصار دام أربعين يوما.

وكان نصير الدين قبل مصرعه متمركزا في الموصل لدعم مركز زنكي بعدما أصبح نائبه هناك ، وقد كان محاربا شجاعا وحاكما عاقلا وحكيما ، وكان ولدا السلطان التركي العظيم الذي كان يحكم في بلاد خراسان ، في عهدة زنكي ، وكان عندما استولى عمهما مسعود على العرش في أصفهان أرسلهما مع زنكي الى تلك المنطقة لحماية هذه البلاد ، وقد أخذهما زنكي كما لو أن هذه المنطقة قد أعطيت لهما من قبل عمهما ، وأنه هو الوصي عليهما ، وهو قائد جيشهما ، وقد كانا يتمتعان بكل الاحترام الذي ينبغي للملوك أن يتمتعوا به ، فأحدهما كان يعيش في الموصل ، والآخر كان يتنقل مع زنكي الذي كان يحكم البلاد باسمه ، فبالاسم كان خابما لهما ، وبالحقيقة كانا هما الخادمين ، وعندما كبر أحدهما وهو الموجود في الموصل نكره بعضهم أنه هو الملك ، وأن الأراضي والبلاد تابعة له ولأبيه ، لأنه لا يملك حولا ولا قوة فهو كالعبد ، وأنه يجب أن يتصرف كالملوك بدلا من أن يطيع أوامر العبيد ، وقد أعارهم أننا صاغية ، فقام مع أعوانه بحبك مؤامرة لقتل نصير الدين والاستيلاء على الموصل وطرد آل زنكي ، وفي الصباح حالما أتى نصير الدين كالعادة

ليقدم فروض الاحترام لابن السلطان قتله عبيده بين ابواب القاعة الكبيرة في القصر ، وخيم الرعب على الموصل ، لكن فرق جيش الاكراد في الموصل اتحدت مع غلمان نصير الدين وقوت عزيمتهم ودخلوا القاعة الكبرى وقبضوا على ابن السلطان وسجنوه في أحد أجنحة القصر ، وبعد عشرة أيام وصل زين ومعه تفويض بالحكم من لدن زكي فسلموه المدينة والحصون وخزينة الدولة وكل مظاهر السلطة ، وقد استلم مقاليد الحكم بقوة ، وألقى القبض على الكثيرين ممن تسببوا في الفتنة وأعدمهم على الخازوق ، وأمر بقتل ابن السلطان سرا ، وأصبح عين الدولة صاحب (شبختان) حاكما على الرها بعد زين الدين ، وكان فضل الله بن جعفر رئيس حران الذي كان سببا في سقوط المدينة موجودا هناك (أي في الرها) ، هذا ولا بد لي أن أشير أن جميع الذين عاشوا في الرها بعد الاستيلاء عليها لأول مرة ظلوا أشرارا ولم يتحولوا عن آثامهم ، مع أن الأسقف كان قد وعظهم ، وذكرهم بالمصيبة والكارثة التي حلت بهم ، وقد ظل عبود مصرى على ممارسة أعماله الشريرة ، مع أنه كان قد بلغ من العمر ثمانين عاما ، وكان بارصوما هو الآخر رجلا شريفا ، وقد تزوج بعض نساء الرها من رجال التركمان ، وبذلك خالفوا روح الرب وأنوها ، وقبل ان تمر سنة على احتلال التركمان للرها اقترن حوالي مئة امرأة برجال « وثنيين » وهكذا حلت عليهن نقمة الرب الذي هجرهن وسبب لهن المصائب .

وبعد ان مكث في حلب مدة سنة واحدة انتقل عماد الدين زكي بن آق سنقر الى الرها في موسم الحصاد في السنة الثانية وترك جيشه على ضفاف نهر (الجلاب) بين كاساس وحران ، ودخل المدينة ومعه قواد جيشه ومستشاريه والولاة في اليوم الخامس ، وكان يوم الثلاثاء ، وفي منتصف ايام عيد العنصرة ، ودف المطران والكهنة والشمامسة وجميع المسيحيون لاستقباله من جهة واحدة اما من الجهة الأخرى فقد أتى جميع المسلمون الموجودون هناك ، والذين تجمعوا من الأماكن المجاورة لاستقباله ، وقد حيا المسيحيين بحرارة ، وقبل الانجيل وسلم على المطران واطمأن على صحته

وأحواله ، وقال انه اتى ليطمئن على أحوالهم ويمددهم بما يحتاجونه ، وقد مر من البوابة الشرقية ليدخل المدينة من البوابة الشمالية التي حدث اختراق المدينة وفتحها منها ، وكان أهالي المدينة قد رمموا الثغرات والأبراج السبعة التي دمرتها آلات الحصار ، وجعلوها أقوى مما كانت قبلا ونقشوا عليها باللغة العربية قصة سقوطها واسم الحاكم ، وهدموا كنيسة الاعتراف واستعملوا حجارتها لترميم السور وبدأوا يبنون حصنا للحاكم بجانب كنيسة القديس يوجنا الجميلة ، حيث سكن الحاكم ، ووضعوا حراسا على الكنيسة لحمايتها من الضرر لأن الفرنجة قد جعلوها وغيروا السقف وجددوا القرميد ، وكان بها حوالي مئة نافذة كبيرة زينوها جميعها بالشعريات الرصاصية ، لانخال النور ، ومنع الطيور من الدخول وقد دفن فيها كثير من الأساقفة والبطاركة ، وقد دفن الأساقفة الفرنجة بما فيهم (بابياس) الذي قتل أثناء الحصار ، دفنوا جميعا خلف المنبر وقد غطي ضريحه بقطعة من المرمر الأحمر نحتت بحيث تمثل صورة الأسقف ، وكان جسم آدائي *Adai* الرسول والملك أبحر في تابوت مطلي ومموه بالفضة ، وعند سقوط المدينة سرق التابوت وتناثرت العظام ، ولكن الرجال المؤمنين جمعوا هذه العظام ووضعوها مع نتف من بقايا القديسين في جرة من الفخار في كنيسة السريان التي تدعى كنيسة القديس ثيودور ، وقد استولى المسلمون أيضا على كنيسة القديس اسطفان وجعلوا كنيسة القديس توماس اصطبلا ، وكنيسة القديس اسطفان مخزنا للعلف والواردات الأخرى التي تصل للحاكم ، وهدموا أيضا كنيسة القديسين ثيودور وميكايل الملك في شرقي المدينة ، واستعملوا حجارتهما لترميم الثغرات في السور من تلك الناحية ، والقلعة الشمالية حيث هلك الجمهور واختنقوا ، وأصلح المسلمون المسجد الذي كان قد استعمل كمقر للمطران الفرنجي ، ودخل زنكي من البوابة الشمالية ببوابة الساعات ، وذهب باتجاه كنيسة القديس يوحنا ثم انحدر باتجاه الينابيع وعابها بدقة ، وذهب الى كنيسة توماس الرسول وأفطر هناك ، ثم امتطى حصانه وذهب الى الينبوع المستدير

المدعو « أيجروس » حيث كان هناك في السابق مقر قصر للملك أيجر قد يمر منذ مدة طويلة ، وقد غرست هناك حديقة لاتزال تدعى حديقة المطران ، وفي أواخر الليل ذهب الى كنيسة القديس يوحنا حيث بات تلك الليلة ، وقد نصبت حولها خيام قواده ، ودعا في الصباح المطران واستفسر منه عن البئر الموجودة في جنوب المدينة حيث كان يشفى منه المصابون بالجذام فأخبروه قصة هذا البئر من أولها (١١٣)

كان زنكي يشكو من مرض داء الفيل (تورم القدمين) الذي أصاب قدميه ، وعندما سمع قصة البئر اعتقد ان بركة المسيح يمكن ان تفعل المعجزات فركب وذهب الى البئر ، وأخرج منه ماء غسل به قدميه ، وكان كل ما بقي من الكنيسة هو المذبح في الشرق ، لذلك أمر زنكي ببناء دار ضيافة ومأوى للمرضى الذين يفدون الى ذلك المكان للاستشفاء ، وأوقف على هذا المأوى ريع الحقول المجاورة ، ولكن الرب لم يرغب ان يتم هذا العمل لذلك عجل بموته قبل ان يتمه .

وزار كناؤسنا السريانية وتأمل في جمالها ، وأمر بوضع ناقوسين كبيرين يعلقان فيها كما كانت العادة عند الفرنجة ، ثم استعد للذهاب وأوصى المطران ان يكون حريصا على حراسة المدينة ، وان لا يخون الحكومة ، وترك المدينة يوم الجمعة بعد انتهاء عيد العنصرة ، وذهب الى الرقة عن طريق حران وارسل بعض الجنود لنهب اراضي قلعة جعبر ، ثم اسكن ثلاثمائة عائلة يهودية في الرها ، وبعد اقامة قصيرة في الرقة تقدم زنكي على رأس جيشه بكامله لحصار قلعة جعبر ، فهاجمها بضراوة ولكن دون جدوى لأنها كانت قلعة حصينة وضايق القلعة بهجوم شديد لأنه كان قد اقسام الا يرجع حتى يستولي عليها ، وفي ليلة الأحد وهو يوم عيد الصليب المقدس الموافق ١٤ ايلول ، وبينما كان زنكي نائما لا يشعر بأي هم من هموم الدنيا ، ويحلم ان يعيش سنوات وسنوات اذا باثنتين من خصيانه المقربين ينقضان عليه ويقتلانه وهو في فراشه ، ثم يهربان الى القلعة ، وانتشر الخبر في تلك الليلة ان زنكي قد قتل ، وخيم

الرب على المعسكر وانتشرت الفوضى فيه ، فأخذ كل شخص يقتل الآخر ، وكل من كان يحمل اي حقد على جاره ويملك اي سلطة ، كان يقوم بالانتقام فورا ، اما القادة والزعماء الذين فقدوا صوابهم وتشوشت افكارهم واصبحوا يضربون اخماسا بأسداس ، فقد عقدوا اتفاقيات سرية وهربوا الى بلادهم ، واما بقية الجند وجماهير الشعب والتجار فقد نهبوا ، ونهب الحراس خيمة زنكي ومعسكره وامواله ومخازن اسلحته واملاكه الشخصية ، وابله وخيوله التي لاتعد ولاتحصى ، وكلها نهبت واصبح ذلك الشخص الذي كان يرهب العالم في الامس وحيدا في الصباح دون ان يجد من يدفنه ويوارى جسده التراب ، وكان له اربعة ابناء ، وكان الاكبر غازي سيف الدين في بلاد العجم مع سلطان « مينيا » (١١٤٤) وبابله والثاني نور الدين محمود كان معه في المعسكر عند قتله ، والابنان الأخران وهما قطب الدين مودود وميرميران كانا في الموصل ، ولكن الزعيم العاقل صلاح الدين ، حالما سمع بمقتل زنكي بادر بأخذ ابنه محمود والقواد الآخرين الذين كانوا معه الى حلب ونصبه حاكما عليها ، وقد استولى على الاموال والثروات الموجودة هناك ، ولم يدفن احد زنكي بل تركوه حتى قيض الله له بعض الرجال الذين حملوه الى الرقة ودفنوه هناك ، وحكم قطب الدين مودود في الموصل وكان زين الدين هو مستشاره ، وحكم نور الدين في حلب ومباين النهرين في عام ١٤٥٨ (١١٤٧ م) ، واستولى على حماه وحمص ودمشق مع ان والده لم يستطع ذلك ، وعقد هدنة مع الفرنجة حيث قابل جوسلين وعملا عهودا موثقة بالقسم ، وكان اكثر دهاء وبراعة من والده ، ولهذا زادت قوته ، واخذ اعزاز ، وبعلبك التي استولى عليها حاكم مصري يدعى الضحاک .

وبقي الفرنجة في كل مكان واخذوا للراحة والسلم ، وقد حزن جوسلين من اجل الرها ، ولكن لم يستطع ان يعمل شيئا ، وعندما سمع بمقتل زنكي فرح فرحا شديدا لانه ظن ان المسلمين سوف يتنازعون ولاينتبهون للرها ، وعمل خطة تقضي بأن يقوم بلدوين

صاحب كيسوم ومرعش بمد يد المساعدة له ، ولكن بيتا بين صاحب انطاكية أهمل المساعدة وذلك لأنه كان حنقا عليهما لأنهما لم يعترفا به سيديا ، وبعد أربعين يوما من موت زنكي جمع بلديون وجوسلين قواهما في دلك واستعدا للزحف على الرها ، وفكرا أن يباغتا المدينة ليلا ، وسمع حكام حلب ما أزمع عليه جوسلين وما جمعه لهذه الغاية ، فأرسلوا رسلا لحكام الرها يقولون لهم ان الفرنجة يجمعون الجموع ، ولانعلم الى اين هم ذاهبون ، فاذا اتجهوا نحوكم فنحن قد جمعنا قوانا ايضا وسنأتي بالسرعة الكلية ، انتهبوا لأنفسكم وحافظوا على المدينة ، اجعلوا المسيحيين يقسمون بالولاء لكم وخذوا منهم رهائن ، وعندما وصلت هذه الاوامر الى الرها أخذ حكامها رهائن من المسيحيين حوالي خمسين رجلا من رجال الحرف كالبنائين والصناع والحدايين ، وأعدوا كل ما هو مفيد ويمكن ان يحتاجونه في الحصون في المدينة ، وسرعان ما حضر الفرنجة في السابع والعشرين من تشرين الاول (بعد سنتين من سقوط المدينة) وقد اختبأوا في أحد الوديان حتى المساء ، وعندما هبط الليل أرسلوا بعض الرجال الأشداء على الاقدام فاقتربوا من المدينة من جهة الغرب ، واختاروا إحدى الزوايا حيث لم يكن هناك حرس فيها ، وتسلسلوا السور بسرعة ، ثم أنزلوا الحبال وأخذوا يسحبون السلالم مع بعض الرجال من رفاقهم ، وعندما تقدم الحراس ليروا من أتى الى السور هاجموهم وقتلوا قسما منهم ورموهم الى خارج السور وسمعت الأصوات وحدثت ضجة عظيمة وجلبة ، وصرخ الفرنجة على السور صراخ الفرح ، وأخذوا يسيحون بحمد الرب فسمع الجنود في الكمين المنصوب على مسافة ، فاندفعوا بشكل كتلة موحدة ووصلوا الى المدينة في الساعة الثالثة ليلا ، ثم نزلوا وفتحوا الأبواب : الباب الغربي بجانب النافورة ، ودخل فرسان الفرنجة ومشاتهم الى المدينة ، وفي الحال توقف هؤلاء الحمقى عن القتال وأهملوا الحراس المسلمين والمسيحيين وأخذوا يضعون أيديهم على كل ما يجدونه ، وحالما رأى المسلمون هذا الخطأ ، هرعوا الى الحصون ففتح لهم من كانوا في الأبواب واستقبلوهم واستقبلوا أطفالهم

ومقتنياتهم دون ضجة او فوضى ، ولم يرتكبوا الخطأ الذي ارتكبه الفرنجة عندما سقطت المدينة لأول مرة بأن أقفلوا الابواب وسببوا الفوضى والتشويش والاختناقات ، وقفز كثير من المسلمين من السور ليلا وهربوا الى حران لأنه لم يطاردهم احد ، وعندما طلع الصباح استدعى الكونت المطران السرياني وطلب منه أن يهيء آلات الحصار للهجوم على القلاع ، ووضعوا آلات الحصار ونصبوها . وهاجموا القلعة السفلى بضاوة ، ولكن دون جدوى او نجاح لأن القلاع كانت تعج بالرجال وكانت عالية وقوية - ولم يستطيعوا ان يهاجموا القلعة العليا لأنها كانت مليئة بالرجال الأشداء ، وهكذا ظلت المدينة عرضة للشدة والكرب ستة ايام ، وعندما رأى الفرنجة انهم لا يستطيعون ان يستولوا على الحصون ، وأن اعداءهم كثيرون وهم يتقاطرون من كل حـدب وصوب ، حلت بهم المخاوف ، واستولى عليهم القلق ، وتجمع في كل ليلة اهالي المدينة حول المعسكر الفرنجي قرب كنيسة ابجر ، وذلك خوفا من التركمان ، وفي يوم السبت أتى جاسوس قادم من جهة العدو وحذر جوسلين من أن فرقا من الجند قد تحركت من حلب ومنبج ومعها كثير من التركمان ، وقد انتشروا فوق الشهول الشرقية والتلال ، وقرر الفرار

ان يخلوا المدينة في الليل دون علم المسلمين في الحصون او التركمان في السهل الشرقي والتلال الشرقية ، ولكن هل من الممكن ان يخرج الألوف من الرجال والخيول من بوابة واحدة دون ان يشعر بهم احد ؟ ولو خرجوا ليلا لأوقفوا حركتهم ، ولكنهم انتظروا حتى مضت ثلاث ساعات من الليل ، وفتحوا البوابة الشمالية وهي باب الساعات وبدأوا بالخروج ، وعندما راهم اهالي المدينة المسيحيون ونساءهم واطفالهم ، وعلموا ان الفرنجة قد تركوهم تحت رحمة الطغاة الوثنيين ، بدأوا بالصراخ والعيول ، وغرقت المدينة في لجة من الفوضى وساد عويل النساء والاطفال الضائعون يتجولون وهم شاردون في كل مكان ، وهم يصرخون بألم طلبا لأمهاتهم دون جدوى ، وهم يتراكمون بين جماهير الرجال وسنابك الخيول التي

كانت تدوسهم وتفتك بأجسامهم وتمزقهم بحوافرها اربا اربا دون ان ينقذهم اي انسان ، وكانت السماء مظلمة ولم يكن هنالك اي نور او ضوء ، واندفع الجميع باتجاه البوابة الشمالية راسا من خلال الشارع الذي يؤدي الى بوابة الساعات ، وهناك كنت ترى الجنود والرجال المدججين بالسلاح والدروع والخيول والحيوانات ممتزجة بالأولاد والنساء والأطفال يتدافعون ويدوس بعضهم بعضا دون شفقة او رحمة ، والماشية والبغال والحمير التي كانت تحمل الأسلاب التي أخذها الفرنجة من المدينة ، وسقطت هذه الحيوانات على الأرض ولم يستطع أحد ان يرفعها او ان يرمي ما عليها من اثقال وأحمال ، وقد انسحق الأطفال بين هذه الحيوانات ولاقوا حتفهم بشكل بائس مرعب ، وفي كل طريق كنت ترى الكثيرين يلقون على الأرض : رجال ، حيوانات ، نساء وأطفال ، شباب كلهم لاقوا حتفهم بشكل بائس وليس هناك من يمد لهم يد العون ، وهكذا كانت نهاية هذا الخروج المعيب ، وقد تركوا بيوتنا مملوءة بالمؤن والحاجيات ، أبوابها مفتوحة والمصابيح فيها مضائة والفرش ممدودة. وغادرت العساكر الفرنجية ومن استطاع اللحاق بها المدينة وتجمعت حول أحد الأبراج وهو ، عمود الذسك امام كنيسة الاعتراف حيث شكل التركمان نطاقا حولهم وامطروهم بالسهم التي اخترقت اجسادهم ، وقد اختلط الحابل بالنابل فلم يكن يسمع الا صوت السيوف وهي تضرب فيما يشبهه جنوع الأشجار ، وارتفعت الأصوات في الظلام ، ولم يكن من السهل على المسيحيين التفريق بين التركمان والعساكر الفرنجية ، واختلط جنود الفرنجة بالجمهور وكان كل واحد منهم يحاول ان يخفي نفسه بالاندفاع نحو الوسط ، وصاح قادة الفرنجة بسخط وفزع: اكراما للرب تعالوا نحو الخارج وقاتلوا بـرجولة وقاوموا هجوم العدو ، وإلا فإننا سنضيع وترجل الفرسان وأحاطوا بالحشد وظلوا هكذا حتى طلوع الفجر ، وعندما طلع النهار ركب بلدوين وجوسلين مطاياهما وأعادا النظام بين صفوف الجند ، وتقدم بلدوين الى الأمام وقاد جوسلين المؤخرة ، بينما كان المشاة على يمين ويسار

الحشد ، وعندما بزغ النهار في يوم الأحد الحزين هذا في الثالث من تشرين الثاني ، وهو عيد القديس جورج ، ساروا بهدوء في طريقهم الى قلعة (سميساط) ، وكان العدو الذي يعد بالالوف لا بل عشرات الالوف قد أحاط بهم وقتل كثيرا من الجنود ، ومن الرجال غير المقاتلين ، ولكن الجنود حاربوا ببسالة ولم يعطوا مجالا للعدو للتقدم نحو الحشد ، لأنهم كانوا رماة أشداء ، وتحرك الفرنجة وقد أخذ التعب منهم كل مأخذ فضلا عن الخطر الشديد الذي كان يحرق بهم ، إذ ليس باستطاعة القلم أن يعبر عن الحزن الشديد ولا أن يصف ذلك المنظر المشؤوم لشعب أصيب في الصميم مثل شعب الرها ، فقد ساروا حفاة على الحجارة الصلبة والأشواك والحسك والمسامير ، وقد مزقت أقدامهم كما لو بالسكاكين وسال الدم من أرجلهم مما سبب لهم الآلام المبرحة ، وكانوا يتدافعون دون أيما نظام ويسقطون بعضهم فوق بعض ، وكان الواحد منهم يجر قدميه جرا ويتقدم ويندفع ثم يسقط ويمد جسمه نحو الشرق ، وبالوقت نفسه كان المطاردون يذبحونهم كالغنم ، وكان الأطفال يركضون حفاة الأقدام بين الأشواك ، وأسنتهم متدلّية من شدة العطش ، وأفواههم مرة كالصبر أو العلقم ، وأسنانهم سوداء كالسحام ، شاردون ، منساقون بين الدشود تدوسهم سنابك الخيل ، وهم يهلكون ، زد على ذلك أن طريقهم لم تكن لتمر على أرض معبّدة ، بل كان عليهم أن يمروا بالأدغال ، وكان أمامهم غابة كبيرة تقع في السهل ، وأشعل العدو النار في الغابة فأصبحت النار تتوهج أمامهم وحولهم ، ولم يستطيعوا أن يتحولوا عن الطريق بل تابعوا السير بأقدام محترقة ، وظلوا في هذا العذاب حتى الساعة التاسعة من اليوم التالي ، وكان التعب قد حل بالعدو أيضا لأنهم ظلوا يحاربون طوال الليل والنهار يقاتلون ويزحفون ، لذلك استعدوا للعودة خشية أن يباغتهم الفرنج من بعض الحصون ، يضاف الى هذا أن قسما منهم رغب أن يساهم في نيل الغنائم من المدينة ، لأن كثيرا من المشاة بقوا هناك حيث كانت حاميات الحصون قد بدأت في نهب المدينة ، وهكذا رجّس العدو ولم يبق الا قليل من التركمان.

وارتكب الفرنجة خطأ فادحا فقد صمموا على مهاجمة الأتراك الذين كانوا لا يزالون حولهم ، ولذلك هاجم الكونت جوسلين ورجاله الذين كانوا في المؤخرة ، هاجموا العدو قربهم وعن يسارهم أي في الغرب وعندما رأى بلدوين أن جوسلين قد بدأ الهجوم وأن الأبنواق قد بدأت تنفخ هاجم الفرنجة من اليمين وتقدم فرسان الفرنجة بشكل متهور وسط جموع التركمان الذين التفوا عليهم من المؤخرة وكسروهم ، ولم يعد الفرنجة يفكرون بالنظام والتماسك ، بل أصبح كل منهم يبغى النجاة لنفسه بشكل هزيمة معيبة مخجلة ، ورموا برماحهم ودروعهم وسوابغهم المصنوعة من الزرد وكل ما لديهم من سلاح ، وحتى السيوف التي بأيديهم ، وذلك نتيجة للفرع الذي حل بهم ، ووصل المشاة الى قلعة متهدمة قريبة على يسارهم على تلة الذسور حيث التجأ اليها حوالي الفان وكانوا من شباب الرها المنعمين المترفين ، أما النساء والأطفال والرضع فقد تركوا للنهب والأسر والعبودية ، وأصيب جوسلين بجرح في يده من رمية بسهم لكنه نجا ووصل الى قلعة سميساط في حالة تعيسة ، وأما بلدوين الذي كان شابا وسيما أشقر طويل القامة ، عريض المنكبين ، شديد المراس في الحرب والقتال ، لم يعد يعرفه أحد من شدة ما نزل به من الضربات بالسيف والطعنات والسهام ، وقد هلك كثير من الكهنة والشمامسة والرهبان الذين نجوا من الحصار الأول ، واحتل التركمان المدينة بكاملها ، ونهبوا أموال جوسلين وبلدوين وجميع أموال الشعب .

وأصبح التركمان والقبائل المختلفة أسيدا لتلك المدينة الشهيرة التي لم تنهب أبدا منذ تأسسها من أيام سلوقس قبل ألف وخمسمائة وستين سنة ، ففي المرة الأولى استبيحت للنهب مدة يومين فقط ، وقد أنقذت من النهب والسلب على يد زنكي عندما أمر بأن يرجع الجميع الى بيوتهم وديارهم ، ولكن في هذه المرة استمر النهب سنة كاملة بدلا من يومين ، فكان التركمان يتجولون في المدينة ويحفرون ويبحثون في الأماكن السرية والأسس والأسطحة ، وقد

وجدوا كثيرا من الكنوز التي خبأها الآباء وقدماء السكان ، والتي لم يكن يعرف عنها الأهالي الحاضرون شيئا.

وأما أولئك الذين نجوا من الهلاك والتجأوا الى القلعة فقد تفرقوا بأعداد صغيرة تبلغ الخمسة او العشرة رجال عند حلول الليل ، وقد قتل بعضهم ونجا الآخرون ، ووصلوا الى سميساط لأن أملاك الفرنج كانت قريبة منها ، وقبض على الأسقف الأرمني وبيع عبدا في حلب ، وأما باسميلوس المطران السرياني فقد هرب الى (سميساط) ولكن لم ينج الكثير من الكهنة فبعضهم قتل وبعضهم أسر ، وأما رئيس الكهنة ورأس الفتنة والفوضى ومخرب الكنيسة وهو (عبدون) فقد أقي القبض عليه في تلك الليلة المشؤومة خارج بوابة المدينة ، فسقط في الخندق لكنه ظن أن المسيحيين سوف ينتشلونه فصاح « من يريد أن يكسب مائة دينار فلينتشلني » وسمعه أحد التركمان فنزل إليه وقتله وأخذ كيس نقوده الذهبية الذي كان معه ، وكل ما كان في حوزته من الأموال ، وأكلت الكلاب جثته وذهبت روحه الى العقاب الأبدي ، وإذا لم يعف الرب عنه فإن مصيره الى جهنم وبئس المصير ، وبدأ جميع الذين نجوا من الأسر والدمار بالتجوال والاستجداء من أقاربهم المستعبدين ، غير أن المسيحيين الذين كانوا في الشرق والغرب وخصوصا الذين سكنوا ماردين وشبختان وفي (سببارق) كانوا كرماء ورحماء نسأل الرب أن يرحمهم ، ونذكر بينهم الفضائل التي يعجز عن وصفها اللسان التي امتاز بها يوحننا أسقف ماردين وهو من أهل الرها ، نسأل الرب أن يعلي اسمه ويكتب عاليا في بيت المقدس ، أما في غربي الفرات فكانت الرحمة معدومة بين المسيحيين ولم يظهر منهم سوى الشر والقسوة وعناد الرأس والعقول المتحجرة ، خصوصا عند الكهنة والرهبان والأساقفة.

(الحملة الثانية)

وفي عام ١٤٥٨ (التاريخ الصحيح ١١٤٨ م) بعد سقوط الرها للمرة الثانية اجتمع ملك الالمان وملك فرنسا على رأس جيش قوامه ثلاثمائة وخمسة وتسعون الف مقاتل ، ووصلوا الى القسطنطينية عاصمة الاغريق عن طريق البحر ، وغرر الامبراطور بهم وارسل معهم ادلاء قادوهم الى الصحراء حيث لاماء ولا طعام ، وبعد ان تقدموا مسيرة عشرة ايام عن القسطنطينية نفذ منهم طعامهم ، ولم يجدوا بيوتا او قرى يستطيعون ان يشترروا منها اي شيء ، وحتى الماء نفذ منهم ، فهاموا في صحراء جافة مجدبة ، ولم يعلموا ماذا يفعلون ، فقد هجرهم مرشدهم ليلا واخطروا تركمان كبدوكية ، فخرج الامير مسعود مع جيشه ، فوجدهم في الصحراء منهوكي القوى من الجوع والعطش ، ونجا الملاكان ومعهما قليل من الجند ، ووصلا الى البحر ، ثم تقدما حتى انطالية وذهبوا بالسفن الى انطاكية بعد ان خسروا كل شيء ، اما التركمان فقد غنموا غنائم لا تعد ولا تحصى من الذهب والفضة التي كانت بين ايديهم كالحصى ، وفي اواخر العام وصل الى عكا امير آخر يدعى الفونسو (الفنش) ومعه زوجته وعائلته وتبعه الف من الخيالة وكان من اقرباء كونت طرابلس الذي كان يخشى ان يطالبه هذا بحصنة ارضه واملاكه ، لذلك دس له السم الزعاف مع واحد من افراد بيته الذي ناوله اياه فمات .

وكان بلدوين على عرش القدس اذناك ، وقد قابله ملك الالمان وملك الفرنجة في بيت المقدس ، واتفقوا جميعا على مهاجمة دمشق ، والقاء الحصار عليها ، وعندما احاطوا بالمدينة ، شددوا الهجوم عليها وخصوصا الالمان ، وارادت الحامية ان تستسلم بعد ان شعرت بالضيق والخطر ، ولكن الحسد والغيرة التي امتاز بهما الفرنجة سببت اخفاق الحصار ونجاة المدينة ، فقد بدا ملك بيت

المقدس يفكر بنفسه ان الفرنجة الغرباء إذا استولوا على المدينة فانهم سوف يصبحون اقوياء ، وربما أخذوا بلاده منه ، ولذلك ارسل رسالة الى رجال الحامية يسألهم كم يعطونه إذا جعل الملوك الغرباء يرتحلون عن المدينة؟ وسبب هذا العرض السرور لدى جند الحامية ، فوعدوا باعطاء ملك القدس مئة ألف دينار ذهبية ، فنصح الملاكين أن يحولا معسكريهما ، وهكذا انتقلا من موقع حصين الى موقع غير مناسب ، وعندما رأى الملاك ان ملك القدس غير مخلص غضبا ، وتركا دمشق وذهبا عائدين الى عكا ، واستلم ملك القدس مئة ألف دينار ، لكنه وجد بعد وقت قصير انها كانت من النحاس الأصفر وليس ذهبيا ، هذا وقفل الملاك راجعين الى بلادهما بحرا ، وعندما سمع (عين الدولة) بن غازي بن دانשמند صاحب ملاطية بما حل بجوسلين في الرها ، وتأكد أن بلدين صاحب كيسوم قد مات ، وبما أنه هو الذي كان يحكم أراضي زوبر ومنطقة التلال حتى حدود ملاطية ، فقد جمع جيشا وهاجم به الأديرة في (زوبر) ، وكانت أرمينية ، وهي دير روبيير الكبير وتاجنكار وشمانج وشيكار ، فاستولى عليها جميعا مع القرى والأديرة التي كانت حولها في مدة ثلاثة أيام ، وكانت هذه الأديرة قوية وغنية ، ومليئة بالمحاصيل الزراعية ولم يفتحها أي عدو منذ زمن طويل ، وقد استباح السكان ، وجعلهم عبيدا ، وعددهم سبعة آلاف وأربعمائة نسمة ونهبهم ، وقد كان جنوده مشدوهين لما رأوه من الثروات ، فأصحاب هذه الثروات لم يساعدا الفقراء ولا المحتاجين ، وبعد أن نهبهم استعبدهم وأشعل النار في المباني وأراق الخمر وأتلف الزبيب والتين والجوز واللوز والأعلاف والأطعمة ، وكانت بكميات لا تحصى ، وأحرق كثيرا من الكتب من جميع الأنواع ، وفي تلك الأثناء استولى التركمان على قلعة تدعى تل ادنا أو اجنجاتل (تل اعذي) وهي فوق سميساط فقتل رجالها واستعبد عددا كبيرا من نساءها وأطفالها ، ثم دمر القلعة بالنار وايضا قلعة أخرى تدعى سروج في أرض (تل باشر) ، وقتل الرجال واستعبد النساء والأطفال واستولى أبناء داود الأرتقي على تل ارسينوس على نهر (١١٥) يسمى بذلك الاسم ، وهو أحد روافد

الفرات ، وبعد موت الوالد تفاهم الأبناء ، فالأبناء الأقوياء استولوا على ذلك المكان بالقوة واستعبدوا خمسة الاف سرياني مسيحي ونهبوا كل شيء ورحلوا ، ونهب جوسلين دير القديس بارصوما .

وفي عام ١٤٦١ (التاريخ الصحيح نهاية عام ١١٤٨ م) جمع نور الدين جيوشه وحاصر يغرى (١١٦) وهي جوار انطاكية وكان صاحبها في (جبلة) على البحر ، وعندما سمع الخبر سار بجيشه وضرب التركمان فجأة وقهرهم ، وهرب نور الدين معه خمسمائة فارس إلى حلب ، وقتل حوالي عشرة الاف ، واستولى الفرنجة على معسكر نور الدين والذهب والفضة والعبيد الذكور والاناث والطبول والأبواق والجواري المغنيات والموسيقيين ، واستولى الفرنجة على كل هذا ورجعوا إلى انطاكية مسرورين ، وعندما خرج سكان انطاكية لاستقبالهم حدث ما لا يمكن وصفه من الابتهاج بين جميع المسيحيين ، وكان مع الفرنجة سيد من أسيد العرب يدعى علي بن وفاء الذي كان يحقد على نور الدين ويخدم في انطاكية .

وبعد ثلاثة اشهر من هذه الهزيمة جمع نور الدين جيشه وحاصر إنب ، وعندما علم بيتابين صاحب انطاكية بذلك جمع جيشه واستعد لحربه ، ولدى سماع نور الدين بمجيء الفرنجة ترك القلعة وانسحب إلى التلال وعسكر الفرنجة في السهل حوالي إنب ، وقد أخبر الكشافه نور الدين ان عدد الفرنجة صغير ، فاستعد للقتال ونفذت الأبواق ، وانحدر جيشه وأطبق على الفرنجة وكان الرب غاضبا على الفرنجة ، ولذلك هزموا وهربوا ، وقد قتل غودفري صاحب مرعش وعلي بن وفاء ، وأخذ نور الدين كثيرا من العبيد ، وأنزل أضرارا جسيمة بأراضي الدوق (جوسلين) واستولى أيضا على حارم وعم وارتاح ، وجميع القرى حول حارم ، وقد قتل حاكم انطاكية ، وكان انكسار الفرنجة هزيمة منكرة ، فقد أخذ التركمان عبيدا وأسرى وخيولا وبضائع لا تقدر بثمن ، وكان جوسلين صاحب الرها في أعزاز عندما علم بمقتل حاكم انطاكية ، وهكذا جمع بعض الرجال من هناك ، وذهب الى انطاكية ليحكمها ، وعندما وصل إلى قورس

واستعد للعبور إلى شيخ (١١٧) (الدير) ، هناك انقض عليه بعض التركمان وقبضوا عليه بعد أن كانوا مختبئين بين الأشجار ، فوعدهم أن يعطيهم كل ما يريدونه إذا أوصلوه إلى اعزاز ، لكنهم أخذوه إلى قرية تدعى شيخ الدير ، ولم يكن التركمان يعرفونه لكن المسيحيين عرفوه وأرادوا أن يشتروه من التركمان ، فاتفقوا أن يكون الثمن ستين دينارا ، عندها حدث بمشيئة الرب الذي لا اعتراض على حكمه فهو يفعل ما يريد ، أن مر يهودي صانع بالقرية ، وعرفه فأخبر التركمان أنه جوسلين ، وهكذا أخذوه إلى حلب فأمر نور الدين بسمل عينيه وزمائه في السجن مقيدا بالسلاسل والأغلال ، وقد بقي تسع سنوات في السجن ثم مات هناك (١١٨) .

وفي عام ١٤٦٣ (التاريخ الصحيح ١١٥٣ م) استعد بلدوين ملك بيت المقدس وحاصر عسقلان ، وكان أحد رجال الفرنجة البارزين قد أبلى بلاء حسنا في حصار عسقلان ، واسمه ريمون (١١٩) وقد طلب هذا من ملك بيت المقدس أن يزوجه أرملة صاحب أنطاكية المقتول ، فوافق الملك على ذلك وأذن له بالذهاب إلى أنطاكية لاتخاذ سيدتها زوجة له وليصبح حاكما للمدينة ، وغادر هذا متوجها إلى أنطاكية وبلدوين ما يزال يحاصر عسقلان وشدد الفرنجة الحصار ، وبنوا برجاً من الخشب كان أعلى من سور المدينة ، ووضعوا جنودا على البرج ، وآلة لرمي الحجارة والسهم على المدينة مباشرة ، فأصبح كل من يخرج من بيته أو يأتي إلى الشارع معرضا للقتل ، وهكذا شعر أهالي المدينة بالكرب من الجوع والقتال ، وكان الحصار طويلا ، ولما رأوا الا منفذ لهم ، لأن حكام مصر كانوا يحاربون بعضهم بعضا كما سنذكر ، ولم يكن هناك أي أمل بالمساعدة من أي جهة أخرى ، طلب أهالي المدينة أن تحفظ أرواحهم ، فنزل الأعيان منهم وقابلوا الملك والبطريك اللذان أعطياهما وعدا معززا بالقسم ، وهكذا استسلمت المدينة وخير الناس من أراد أن يبقى في المدينة تحت حكم الفرنجة سمح له بذلك ، أما الذين رغبوا بالذهاب إلى مصر فأخذوا أسرهم وأموالهم ورحلوا بسلام .

وحدث في تلك السنة زلزال هدم مدينة (شيزر) بكاملها ، وقد هلك حاكمها واولاده واهل بيته ، وأربعون الفاً من الرجال الآخرين ، وسقط نصف الصخرة التي بنيت عليها القلعة وقتل كثيرون في حماه والسلمية وفي معظم القرى المجاورة ، وحدث أيضاً أن استولى نور الدين على حران وانتزعتها من أخيه (ميرمران) وكذلك على بيت هسننا (بهسنا) بعد حصارها واستولى التركمان على دير البارد وقتلوا أربعة من الرهبان ، واستولى نور الدين على عين تاب أيضاً عنوة ، ودمرها كلياً ، ولم يظهر أي رحمة ولاشفقة وأخذ الأسرى والغنائم إلى حلب .

وفي عام ١٤٧٠ (التاريخ الحقيقي ١١٥٧ م) أتى إلى بيت المقدس رجل شهير ينتمي إلى ملوك الفرنجة ويدعى كونت فلاندرز ، ومعه عدد كبير من الجند ، وكون جيشاً عظيماً بعد أن جمع معه ملك القدس وكونت طرابلس وطوروس الأرمني صاحب كيليكية ، وحاصر شيزر واستعبدوا كل من فيها واستولوا على الحصن ، ونهبوها كلياً ، وقتلوا الكثيرين ، وأخذوا حوالي خمسة آلاف امرأة وطفل عبيداً لهم ، وأخذوا كميات من الذهب والفضة لانهاية لها ، ثم زحفوا إلى حارم التي استسلمت لأن المسلمين فيها قد ذهبوا إلى حلب ، وفي نهاية العام أتى مانويل امبراطور القسطنطينية إلى انطاكية وعسكر على ضفاف نهر (عفرين) ، وتظاهر أنه يريد حلب وهكذا جمع نور الدين الفرق الاسلامية من أقور ومابين النهرين و آمد وماردين وميافارقين ليحارب الامبراطور ، وذلك لأن المسلمين كانوا شديداً الخوف من الامبراطور ، ولكن الامبراطور سمع أن اندرونيكوس الذي كان واحداً من النبلاء قد ثار ضده في العاصمة ، لهذا بادر إلى عقد هدنة مع نور الدين ، وافسق بها نور الدين على إخلاء سبيل الأسرى الذين في حلب بما فيهم ابن الفونسو الذي دس له كونت طرابلس السم ، ورجع الامبراطور إلى عاصمته ، ولم يحقق أي عمل ، أو أي انتصار في هذه الحملة .

وفي تلك السنة حدث زلزال هدم مدينة (جبلة) على الساحل ،

وتسبب في قتل حوالي الفين من الناس ، وفي تلك السنة غزا اراضي حلب ونهبها رينالد صاحب انطاكية وجوسلين وهو ابن جوسلين الذي اسر في حارم ، وبعد ان عاثا في الارض فسادا واسرا وقتلا من شاءا ، رجعا إلى اماكنهما دون ان يحدث لهما اي ضرر ، وذهب رينالد إلى أنطاكية ، بينما بقي جوسلين في إحدى القرى يأكل ويشرب ، وإذا بجيش التركمان يداهمه ويلقي القبض عليه ويأخذه إلى حلب حيث وضع وهو مقيد بالسلاسل والأغلال مع والده ، وفي تلك السنة عاد رينالد لنهب وسلب أراضي حلب ، لكن في طريق عودته داهمه جيش تركماني وكسر جنوده عند النهر الأسود ، وأخذه أسيرا وقيد بالسلاسل ، وفي تلك السنة أصبح أحد أبناء بيتابين (١٢٠) حاكما على أنطاكية ، فطرد والدته التي ذهبت إلى اللانقية .

وحشد في عام ١٤٧٥ (١١٦٤ م) نور الدين جيوشه ، وجلب اخاه قطب الدين حاكم اقور والموصل وزين الدين حاكم إربيل ، وحاكم سنجار ، وزين الدين صاحب حصن كيفا وارض هنزيط وحسام الدين صاحب ماردين وشهاب الدين صاحب زندان والبيرة ، وابن عمه مجد الدين وسيف الدين صاحب منبج والرها ، وعندما تجمع كل هؤلاء حاصروا حارم ، وقد بلغ عددهم سبعون الف فارس واربعون الف راجل ، ووضعوا الات الحصار وقاموا بهجوم ضار على الحصن الذي كان يحكمه رينالد (١٢١) وكان محاربا ، وقد قاوم هذا بعنف وشجاعة وجمع الفرنجة ستمائة خيال وخمسة الاف راجل تحت قيادة كونت طرابلس وصاحب أنطاكية وطوروس الأرمني ، وزحفوا جميعا من أنطاكية إلى حارم ، وعندما سمع التركمان خبر قدوم الفرنجة وتقدمهم نحوهم انتقلوا إلى قرية تدعى عم ، ووصل الفرنجة وعسكروا في المكان الذي كان التركمان يعسكرون به ونصحهم طوروس صاحب كيليكية وقال إنه مادام أنهم قد نجحوا في رفع الحصار عن الحصن ، يجب عليهم أن يسحبوا الجنود الضعاف من الحصن ويضعوا مكانهم جنودا أقوىاء شجعانا ويرجعوا إلى أنطاكية وينتظروا رجوع ملك القدس من مصر ، ولكن

كونت طرابلس لم يوافق على هذه النصيحة وأصر على القتال ، وقهر التركمان لأنهم جميعا كلاب حسب رايه ، وهكذا زحف الفرنجة من حارم إلى عم ، وعندما اقتربوا رأى التركمان الذين كانوا على التل أنهم قليلي العدد ، ونفخوا الأبواق وانحدروا نحوهم وهأجموهم ، واحاطوا بهم إحاطة السوار بالمعصم وضربوهم ضربة قاضية ، وهرب كونت طوروس الأرمني ، وأسر دوق الاغريق ، وقتل جميع الرجالة ، وأسر صاحب انطاكية ومعه كثير من الفرسان ، وهلك الكثيرون ومعهم خيولهم ومؤنهم بأعداد كبيرة كل ذلك في أب من تلك السنة ، وبعد أن هزم الفرنجة حاصر التركمان حارم التي استسلمت ، ثم غزوا أراضي الدوق وأخذوا الأسرى ثم ذهبوا إلى دير القديس سمعان وهو دير اغريقي مشهور ونهبوه وأخذوا منه الذهب والفضة والأموال وكل الأشياء الثمينة ، والكتب وصحن الخبز المقدس (صحن الجسر) وكؤوس القربان والعشاء الرباني والصلبان والمباخر وتمائيل من الذهب والفضة وملابس الكهنة الرسمية الثمينة ، ونهبوا الرهبان وأخذوهم جميعا أسرى إلى حلب وقد قتل أكثر من عشرة آلاف افرنجي عند الهزيمة التي حلت بهم في حارم وعدد أكثر منهم من التركمان وبعد هذا زحف التركمان إلى بانياس التي استسلمت كما استسلم صاحبها (١٢٢) ، وأما ملك القدس فكان في مصر (١٢٣) .